رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

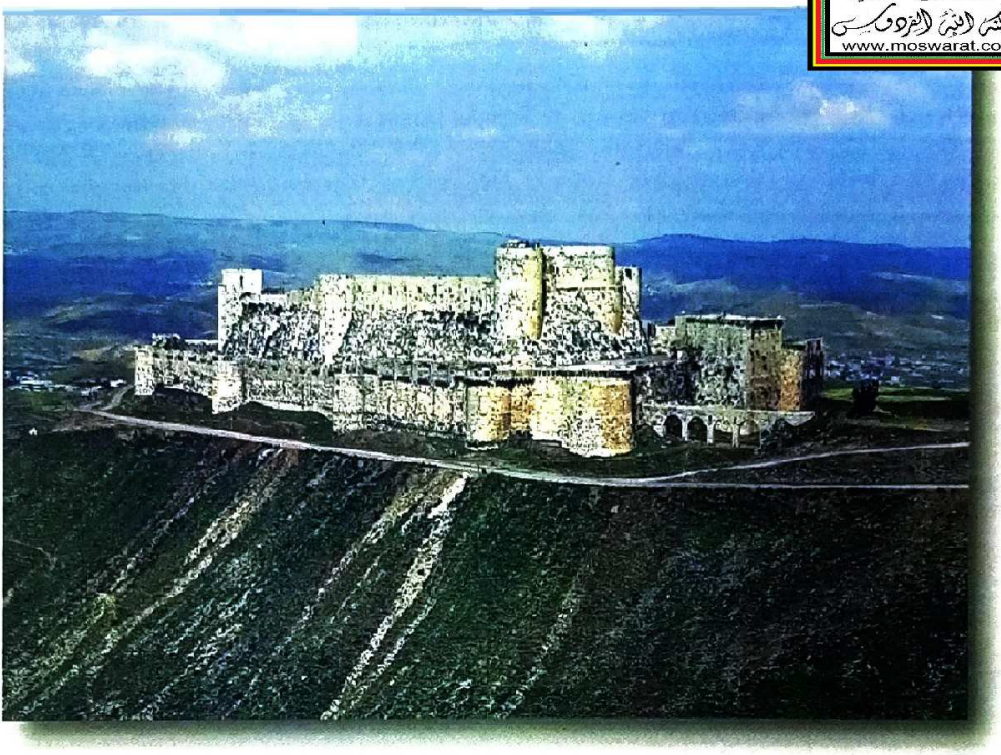

د. حليم خليف الكاني

# مختصر تاريخ الدولة الأيوبيَّة وخلفائها

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# مختصر تاريخ
# الدولة الأيوبية وخلفائها

# مختصر تاريخ الدولة الأيوبية وحلفائها

## الدكتور حليم خليف الكاني

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية (5425/ 10/ 2017)

ISBN 978-9957-698-49-2

**الطبعة الأولى 2018**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه

ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر بموجب عقد

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

**المدير العام: جعفر العقيلي**

ش. الملكة رانيا، عمارة البيجاوي ط3، بجانب صحيفة «الرأي»

نقال: 776724366 - 797162720 (00962)،

تلفاكس 65620722 (00962) ص.ب 713680 عمّان 11171 الأردن

alaan.publish@gmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# مختصر تاريخ
# الدولة الأيوبية وخلفائها

حليم خليف الكاني

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# فهرس المحتويات

**مقدمة عامة**

**الفصل الاول الدولة الأيوبية**

أصول الايوبيين ١٣

التاريخ (تأسيس الدولة) ١٤

مراحل نفوذ الدولة الفاطمية بين التوسع والانحسار في القرن العاشر الميلادي ١٦

صلاح الدين الايوبي (وتوتر العلاقات مع الزنكيين) ٢٠

صلاح الدين الايوبي في شبابه ٢٠

توحيد الجبهة الاسلامية ٢٢

الصراع مع الصليبيين ٢٥

الدولة بعد صلاح الدين ٣٠

مرحلة سقوط الدولة الايوبية ٣٩

الغزو المغولي ٤٢

اخر الامراء الايوبيين ٤٥

انظمة الدولة ٤٥

النظام السياسي ٤٥

النظام القضائي ٤٨

النظام الاقتصادي ٤٩
النظام العسكري ٥١
الجيش ٥١
البحرية ٥٤
العلاقات مع دول الجوار ٥٦
الخلافة العباسية ٥٦
الدولة السلجوقية ٥٧
الامبروطورية البيزنطية ٥٩
دولة الموحدين ٦٠
الحشاشون ٦١
المظاهر الاجتماعية والثقافية ٦٢
الحياة الدينية ٦٢
الحياة العلمية والفكرية ٦٦
الحياة الاجتماعية ٧٠
العمارة والأثار ٧١

## الفصل الثاني

## أهم خلفاء الدولة الأيوبية

صلاح الدين الايوبي ٧٧
الملك الصالح نجم الدين أيوب ١١٨
**المصادر والمراجع** ١٣٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# مقدمة عامة

الأيوبيون بنو أيوب إحدى الأسر التي حكمت مناطق واسعة من العالم العربي خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، حيث امتدت سيطرة الدولة الأيوبيّة على كل من الشام ومنطقة ديار بكر جنوب تركيا، وشمال العراق والحجاز، بالإضافة إلى مناطق جنوب وشرق اليمن، وذلك بعد أن اتخذوا من مصر قاعدة لهم حيث تأسست الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي، وقد استقلت أجزاء عدة من الدولة الأيوبية ليحكمها أفراد من العائلة، حتى انتهت بسبب النزاعات مع كل من المماليك في مصر والمغول في الشام والعراق. الدولة الأيوبية أصل الأيوبيين هو محل خلاف بين المؤرخين بسبب التضارب في الروايات التي يُرجع فيها البعض أصلهم إلى أكراد أرمينيا أو أذربيجان المستعربين، بينما ينكر بنو أيوب ذلك النسب ويقطعون بأن أصولهم عربيّة، ونزلوا في ديار الأكراد، كما أنّ البعض أرجع نسبهم إلى قريش. قوة الأيوبيين بدأت قوة أسرة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين في التصاعد عندما عمل مع أخيه أسد الدين شيركوه في خدمة آل زنكي، ولحسن بلائهم في القيادة العسكريّة فقد تمت ترقيتهم في المناصب بسرعة، فتولى نجم الدين أيوب بعلبك ومن بعدها دمشق، وبقي في منصبه حتى وفاة نور الدين زنكي. تأسيس الدولة الأيوبية في الوقت الذي بزغ فيه نجم الأيوبيين في الشام كقادة عسكريين كانت الدولة الفاطميّة في مصر على وشك الانهيار، وكان الصراع على كرسي الوزارة على أشده، فلجأ شاور وهو أحد المتنافسين على المنصب إلى نور الدين زنكي ليعيده إلى منصبه، بعد أن تم الانقلاب عليه، بينما استعان الوزير ضرغام بالصليبيين، وأرسل نور الدين زنكي حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين كأحد قادة الحملة، وبالفعل استطاع أسد الدين انتزاع الوزارة في مصر، ولكنه ما لبث أن توفي بعد ثلاثة أشهر من حكم

البلاد، ليخلفه ابن أخيه صلاح الدين الذي استطاع بسط سيطرته في وقت قصير للغاية، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي على المنابر. ما بعد صلاح الدين كان صلاح الدين قد بسط سيطرته على كل من مصر والشام واستطاع مواجهة الصليبيين وتوفي بعد عقد صلح الرملة، ولكنه كان قد قسم أقاليم الدولة بين أبنائه الذين اختلفوا فيما بينهم، واستقل كل منهم بحكمه، وكان من عادتهم شراء المماليك الذين كانوا آخر الأسباب في انهيار الدولة، حيث قتلوا آخر سلاطين بني أيوب في مصر وهو توران شاه وأسسوا دولة المماليك البحريّة، بينما قضى المغول على بقية الأيوبيين في دمشق وحلب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

# تاريخ الدولة الأيوبية

## الدولة الأيوبية

الدولة الأيوبية هي دولة إسلامية نشأت في مصر، وامتدت لتشمل الشام والحجاز واليمن والنوبة وبعض أجزاء المغرب العربي. يعتبر صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية، كان ذلك بعد أن عُيِّن وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ونائبًا عن السلطان نور الدين محمود في مصر، فعمل على أن تكون كل السلطات تحت يده، وأصبح هو المتصرف في الأمور، وأعاد لمصر التبعية للدولة العباسية، فمنع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي، وأغلق مراكز الشيعة الفاطمية، ونشر المذهب السني.

بعد وفاة نور الدين زنكي توجه صلاح الدين إلى بلاد الشام، فدخل دمشق، ثم ضمَّ حمص ثم حلب، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطانًا على مصر والشام. كانت دولة الأيوبيين قد امتدت إلى بلاد الحجاز، حيث قام صلاح الدين بتحصين جنوب فلسطين، والاستعداد لأي أمر يقوم به أرناط صاحب قلعة الكرك، والذي كان يدبر للهجوم على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وكان صلاح الدين قد اعتنى بميناء القلزم وميناء جدة، لأن أرناط كان قد عمَّر أسطولا في ميناء أَيْلَة (العقبة)، وأرسل سفنًا بلغت عِيذاب، فاستولى صلاح الدين على أيلة. استرد صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر ١١٨٧ م، بعد ثلاثة أشهر من انتصاره في معركة حطين، عقب ذلك سقطت في يده كل موانئ الشام، ما عدا ميناءي

إمارة طرابلس وأنطاكية، وانتهت الحرب الصليبية الثالثة بسقوط عكا بيد الصليبيين، وتوقيع صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.

توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ بعد أن قسم دولته بين أولاده وأخيه العادل، ولكنهم تناحروا فيما بينهم، وظل بعضهم يقاتل بعضًا في ظروف كانت الدولة تحتاج فيها إلى تجميع القوى ضد الصليبيين. بعد وفاة العادل تفرقت المملكة بين أبنائه الثلاثة الكامل محمد على حكم مصر، والمعظم عيسى على دمشق وما حولها، والأشرف موسى على باقي الشام، لم يكد يتوفى العادل أبو بكر حتى انهال الصليبيون على الشام ومصر وخصوصًا مصر في ثلاثة حملات صليبية متتابعة جعلت الكامل محمد على أن يتنازل طواعية عن بيت المقدس للملك فريدريك الثاني سنة ٦٢٥ هـ الموافق ١٢٢٨م. اختلف الأشرف موسى مع المعظم عيسى على حدود النفوذ في الشام والجزيرة ووقعت بينهما الكثير من المشاكل والاضطرابات كرست الفتنة وعمقت أسباب الخلاف ومهدت لمزيد من التخبط وفتحت طريق سقوط الدولة.

وُلِّي بعد وفاة الكامل محمد أخوه الصالح أيوب وذلك سنة ٦٣٧ هـ والذي استرد بيت المقدس ودمشق وعسقلان بعد تحالفه مع القوات الخوارزمية الهاربة من الغزو المغولي. في آخر حياة الصالح أيوب هجمت الحملة الصليبية السابعة على مدينة دمياط يقودها لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ، فرابط الصالح أيوب بالمنصورة، وهناك أصيب بمرض شديد تفاقم عليه حتى مات، فأخفت جاريته أم خليل الملقبة بشجرة الدر خبر موته وأرسلت لولده الأمير توران شاه وكان بالشام، فقاد الجيوش المصرية وحقق انتصارًا كبيرًا على الصليبيين، وأسر ملكهم لويس التاسع. لما حقق توران شاه انتصاره على الصليبيين استدار إلى زوجة أبيه وباقي قادة الجيش وكانوا جميعًا من المماليك البحرية، وخطط للتخلص منهم وعزلهم، جعلت هذه الأمور شجرة الدر تتآمر مع المماليك على قتل توران شاه، فهاجموه في ليلة ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٢٥٠م وقتلوه، وبذلك انتهت الدولة الأيوبية.

## أصول الأيوبيين

تحدث المؤرخون عن النسب الأيوبي واختلفوا حول هذا النسب، ولكنهم اتفقوا على أن جد الأيوبيين هو الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شادي (أو شاذي) بن مروان. كتب كل من ابن الأثير وأبو شامة وابن العديم وابن خلكان وغيرهم عن نسب الأيوبيين، ولكنهم لم يجمعوا على رأي واحد، ولم يبتوا نهائيًا في النسب الأيوبي حتى المعاصرين منهم، فمنهم من قال بأنهم أكراد، ومن قال أنهم عرب أمويون، ومن قال أنهم عرب ينتسبون إلى علي بن أحمد المري، ولكن لم يثبت بأن أحد من الأيوبيين نسب نفسه إلى الأكراد فمنهم من أيد الرأي الثاني وبعضهم أيد الرأي الثالث وقد نفوا جميعهم الرأي الأول.

يرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين في أرمينيا، وقد أختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانية، ويذكر أحمد بن خلكان ما نصه: «قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين، إن على باب دوين قرية يُقال لها «أجدانقان» وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شاذي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد»، بينما يرفض بعض ملوك الأيوبيين هذا النسب وقالوا: «إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم».»

الأيوبيون نفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل الأيوبي صاحب اليمن أرجع نسب بني أيوب إلى بني أمية، وأن نسبهم يرجع إلى أيوب بن شادي (أو شاذي) بن مروان بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال: «كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلاً»، أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني مرة بن عوف من بطون

غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود.

شرح الحسن بن داود الأيوبي في كتابه «الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية» ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادًا، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم. وقال: «ولم أرَ أحداً ممن أدركتُه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب». كما أن الحسن بن داود قد رجَّح في كتابه صحة شجرة النسب التي وضعها الحسن بن غريب، والتي فيها نسبة العائلة إلى أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي محمد بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هُدْبة بن الحُصَين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مُرَّة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نَشبَة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش.

## التاريخ

### تأسيس الدولة

تتفق المصار التاريخية أن شادي بن مروان أعقب ولدين، الأول: الملك الأفضل نجم الدين أبي الفضل أيوب والد الملوك، الثاني: الملك المنصور أسد الدين أبي الحارث شيركوه، وقد اتصل بحاكم العراق السلجوقي مجاهد الدين بهروز، وذلك في عهد السلطان السلجوقي مسعود بن ملكشاه، فأقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل، وهي بلدة كردية وسكانها أكراد. لما مات شادي خلفه في حكم قلعة تكريت ابنه نجم الدين أيوب الذي أُتيحت له الظروف خدمة عماد الدين زنكي أمير الموصل وحلب، وذلك عندما انهزم زنكي في الحرب التي خاضها ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة ٥٢٦ هـ الموافق ١١٣٢ م، وفر مع جيوشه إلى مدينة تكريت ملتجئين إلى نجم الدين أيوب، فأكرمهم وآواهم. شائت الظروف أن يتنكر مجاهد الدين بهروز لنجم الدين أيوب، وقد تعددت أسباب هذا التنكر، وكانت النتيجة أن أرسل إليه بهروز يأمره

بتسليم القلعة إلى عامل آخر، والخروج مع أهله من تكريت. غادر نجم الدين قلعة تكريت ومعه أخوه أسد الدين متوجهًا نحو الموصل، فأحسن عماد الدين زنكي وفادتهما، وبالغ في اكرامهما وأقطعهما اقطاعات جليله وكان ذلك عام ٥٣٢ هـ الموافق ١١٣٨م، ويقال أنه في نفس الليلة التي خرج فيها نجم الدين أيوب من قلعة تكريت ولد له يوسف (صلاح الدين) الذي تنسب له الدولة الأيوبية.

قابل نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه مكرمة عماد الدين، بانخراطهما في جيشه، وأخلصا له وأحرزا انتصارات عديده، ماحدا بعماد الدين بتعيين بنجم الدين أيوب حاكمًا على بعلبك بعد استيلائه عليها سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٩.

عد مقتل عماد الدين زنكي انقسم ملكه بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب، فاستغل ذلك صاحب دمشق مجيد الدين أبق بن جمال الدين بن تاج الملوك، فحاول استرجاع بعلبك، فسلمه نجم الدين أيوب مقابل تعهده بإعطائه إقطاعًا جليلًا، ثم نزل دمشق وتسلم الإقطاع وهو عبارة عن عشرة قرى بجوار دمشق، بالإضافة لدار يسكن بها في دمشق، ثم أصبح لنجم الدين مركز مرموق في دمشق حتى أصبح قائدًا لقواتها، واستمر يشغل هذا المنصب حتى استولى نور الدين على دمشق عام ٥٤٩ هـ تاموافق ١١٥٤ م. أما أسد الدين شيركوه فقد بقي في خدمة نور الدين محمود بحلب، حتى أصبح قائدًا لقوات حلب، ثم قام نور الدين بتسيير جيشًا بقيادة شيركوه للاستيلاء على دمشق عام ٥٤٧ هـ الموافق ١١٥٤م، فوقف نجم الدين أيوب على رأس جيش حاكم دمشق مجيد الدين آبق. قام نور الدين محمود بالطلب من شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين وحثه على المساعدة، فطلب نجم الدين الحصول على المزيد من الإقطاعات في دمشق، فوعد نور الدين بتنفيذ ما طلب، واستمرت المفاوضة ستة أيام انتهت بتسليم دمشق، فعين نجم الدين حاكمًا على دمشق.

كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقرًا للدولة الفاطمية، ولم يكن للخليفة الفاطمي في ذلك الوقت سوى الدعاء له على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكانت هذه الفترة من أسوأ الفترات السياسية في تاريخ مصر الإسلامي، فقد أصبح الخليفة الفاطمي يشارك

في مؤامرات و دسائس ضد وزرائه للتخلص منهم وذلك لضعفه وعدم قدرته علي عزلهم بنفسه، فوُجد أن كل طرف كان يتآمر ضد كل الأطراف، ولا يبالي أي طرف من أن يتقوي بالصليبيين ضد منافسه، مما أدي إلي تحريك أطماع الصليبيين في الإستيلاء علي مصر. فعندما فشل الصليبيين على الجهة الشمالية (الشام)، اتجهوا صوب الجنوب (مصر)، واستغل الملك الصليبي بالدوين الثالث حالة مصر الضعيفة، وكشر عن أنيابه مهددًا بغزو الديار المصرية، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير ابن رزيك باسم الخليفة الفاطمي العاضد بجزية سنوية مقدارها مئة وستين ألف دينار، لما مات بلدوين الثالث تولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أمالريك الأول بدون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من الجزية، وكان تولي أمالريك حكم بيت المقدس بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر، حيث أدرك أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماة وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين في شمال بلاد الشام، فأصبح الطريق مفتوحًا أمامهم لمصر.

## مراحل نفوذ الدولة الفاطمية

## بين التوسع والانحسار في القرن العاشر الميلادي.

في هذه الفترة تحركت رغبات نور الدين محمود في ضم مصر إلي الشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين، وكان نور الدين قد نجح في توحيد معظم مدن وإمارات الشام تحت إمرته، هذا بالإضافة لتلقيه العهد من الخليفة العباسي عام ٥٤٩ هـ بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر. كان الوزير طلائع بن زريك الأرمني هو الحاكم الفعلي لمصر زمن الخليفة الفاطمي الفائز بدين الله، ولكنه قتل وابنه فحل محله في الوزارة شارو الذي كان حاكمًا للصعي ظهر في تلك الفترة ضرغام أبو الأشبال أمير فرقة من الجند المغاربة تخدم في مصر كمنافس فعلي للوزير شاور علي كرسي الوزارة زمن الخليفة العاضد لدين الله. استطاع ضرغام خلع شاور من وزارة مصر بمساعدة الخليفة الفاطمي، فوجد أمالريك الفرصة سانحةً أمامه ليتخذ من مسألة الجزية ذريعة لهجوم يشنه على الحدود المصرية، ثم عبر برزخ السويس سنة ٥٥٨ هـ الموافق ١١٦٣م

ووصل إلى مصب دمياط، فتصدى له ضرغام، وقطع بعض جسور النيل، وشكلت مياه الفيضانات وأوحال الدلتا عائقًا أمام أمالريك وجعله يتراجع إلى فلسطين. ما كان من شاور إلا أن هرب إلي الشام واستنجد بنور الدين محمود ليعيد إليه الوزارة، ووعده بثلث خراج إيراد مصر، وأن يمنح جنده إقطاعات يقيمون فيها في مصر.

بعد فترة من التردد وافق نور الدين علي مساعدة شاور لاستعادة الوزارة في مصر شريطة أن يعترف شاور بسيادة نور الدين علي مصر، وكان نور الدين يرغب في تحويل مصر إلي المذهب السني وتوحيد مصر والشام ضد الصليبيين. أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه علي رأس جيش إلي مصر، واصطحب أسد الدين معه ابن اخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك، لما علم ضرغام بأنباء شاور ونور الدين أرسل يستنجد بالصليبيين، فلم يتردد أمالريك بمساندته بعد أن تعهد ضرغام له أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين مقابل مساعدته، تقابل جيش شيركوه وجيش ضرغام عند القاهرة، واستطاع شيركوه أن يهزم قوات ضرغام ويقتله ويعيد شاور إلي الوزارة، و لكن شاور نكث بعهده ورفض الاعتراف بولائه لنور الدين محمود، وطلب من شيركوه أن يعود إلي الشام، ولكن شيركوه توجه بجيشه إلي مدينة بلبيس في دلتا مصر وسيطر عليها وتحصن بها ضد شاور. أرسل شاور إلي أمالريك ملك بيت المقدس الصليبي ليساعده في التخلص من أسد الدين شيركوه، وكان سقوط عسقلان في غزة بوابة مصر الشرقية في يد الصليبيين قد أغري أمالريك ملك بيت المقدس بالاستيلاء علي مصر لتصبح أحد الممالك الصليبية، فوافق أمالريك وسار بجيش إلي مصر وانضم لقوات شاور وتقدم الإثنان لحصار مدينة بلبيس التي كان شاور معسكرًا بها، وانضمت إليه بعض القوات من عرب كنانة بالشرقية، واستمر حصار شاور والفرنج لشيركوه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر رمضان إلى ذي الحجة، وفي النهاية قبل شيركوه الخروج من مصر مقابل خروج الصليبيين أيضًا. لكن شيركوه الذي رأي ضعف مصر وهوان الخلافة الفاطمية، عاد يلح علي نور الدين ليرسل حملة أخري إلي مصر، فوافق نور الدين، وبعد سنتين أي في عام ٥٦٢ هـ الموافق ١١٦٧ م، أرسل نور الدين جيشًا آخر إلي مصر

بقيادة شيركوه ومعه صلاح الدين مرة أخري. استنجد شاور أمالريك ملك بيت المقدس، الذي خرج على رأس جيش من مملكته، ولكن شيركوه كان الأسرع ووصل إلي القاهرة قبل أن يعترضه جيش أمالريك، أقام شيركوه معسكره في الجيزة، بينما سار أمالريك عن طريق فاقوس وبلبيس حتى وصل إلى مكان بين القاهرة والفسطاط، حيث خرج شاور لاستقباله، وتم عقد معاهدة بين الصليبيين وشاور، أقرها الخليفة الطفل العاضد يتقاضى بموجبها أمالريك مبلغًا كبيرًا من المال يقدر بحوالي مئتي ألف دينار. هاجم شاور والجيش الصليبي قوات شيركوه الذي تقهقر إلى موضع قريب من مدينة المنيا الحالية، ولكن القوات الصليبية لحقت به هناك ولحقت الهزيمة بالجيش الصليبي، وعرفت هذه المعركة باسم معركة البابين، بعد ذلك سار شيركوه صوب الفيوم ومنها إلى الإسكندرية، لكن قوات أمالريك وبعض الأساطيل المعاونة للصليبيين فرضت حصارًا بريًا وبحريًا على الإسكندرية استطاع شيركوه أن ينسل بجيشه خارج الأسكندرية وترك حامية مكونة من ألف رجل يقودها صلاح الدين الأيوبي لتواجه حصار جيش أمالريك وشاور، دام حصار الاسكندرية والحامية أربعة أشهر واضطر شيركوه أن يدخل في مفاوضات مع أمالريك لفك الحصار، وتم الاتفاق علي أن ينسحب شيركوه بجيشه من مصر وأن تُدفع ضرائب تبلغ مئة ألف دينار من مصر لملك بيت المقدس في مقابل جلاء القوات الصليبية عن مصر.

سار أمالريك بجيشه إلي مصر عام ١١٦٨م بدعوي أن شاور لم يدفع له الضرائب المتفق عليها، وهزم الجيش الفاطمي بقيادة شاور في بلبيس وسار إلي القاهرة، استنجد شاور بنور الدين محمود لينقذه من الصليبيين، فقرر نور الدين إرسال حملة ثالثة بقيادة شيركوه وصلاح الدين. عندما سار جيش الصليبيين بقيادة أمالريك لاعتراض جيش شيركوه، استطاع شيركوه بقواته أن يفلت منهم وأن يدخل القاهرة في عام ٥٦٤ هـ الموافق ٦ من ديسمبر ١١٦٨م بدون مقاومة، فقام أمالريك بسحب جيشه من مصر وعاد إلي بيت المقدس. أصبح شيركوه الحاكم الحقيقي لمصر، ولكنه لم يعزل الخليفة الفاطمي، فقد كان الخليفة الفاطمي مريضًا مرضًا لا يرجي شفاؤه، فآثر شيركوه أن يتركه يموت بسلام، بينما قام صلاح الدين بالقبض على الوزير

شاور على مقربة من قبر الإمام الشافعي بالقاهرة، ولما بلغ الخليفة الفاطمي العاضد ذلك طلب منه إرسال رأسه فقتله وأرسل رأسه إليه. بعد تعيينه بشهرين وزيرًا علي مصر توفي أسد الدين شيركوه، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي علي وزارة مصر في ٢٥ جمادي الآخر ٥٦٤ هـ الموافق ٢٦ مارس عام ١١٦٩م، وكان عمر صلاح الدين وقتها لا يزيد عن اثنين و ثلاثين عامًا، مع أن صلاح الدين اعتلى كرسي الوزارة الفاطمية، إلا أن الفاطميين اختاروه لهذا المنصب بسبب حداثة سنة وما ظنوه من قصور خبرته السياسية، وكان العاضد ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته مستضعفاً يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين.

أوجست مملكة بيت المقدس خيفة من تنامي نفوذ نور الدين زنكي في مصر، فقرروا الاستنجاد بملوك أوروبا لاحباط أطماع نور الدين، لكن دعوتهم لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فتوجهوا للإمبراطو البيزنطي منويل الذي رحب بمد يد المعاونة، فتوجهت قوات مملكة بيت المقدس إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد الحربي، فوصلوا إليها عام ٥٦٥ هـ الموافق ١١٦٩ م. أرسل صلاح الدين جنده لدمياط بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، بالإضافة لفرقة من الجنود أرسل بها نور الدين من الشام. لم يتيسر للصليبيين تحقيق غرض حملتهم، وقام نور الدين بمهاجمت حصن الكرك، فأسرع الصليبيين في رفع الحصار عن دمياط. كان أحد أهم نتائج فشل الحملة الصليبية توطأة حكم صلاح الدين لمصر فطلب من نور الدين أن يرسل أباه وأقاربه إليه وكان ذلك عام ١١٧٠م، ومالبث أن أسند إلى أباه بيت المال وأقطع إخوته بعض الأراضي.

في عام ١١٧١م أرسل نور الدين محمود إلي صلاح الدين يأمره أن يقوم بتحويل البلاد إلي المذهب السني والدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلًا من الخليفة الفاطمي، ولكن صلاح الدين استمهله حتي يتوفي الخليفة العاضد المشرف علي الموت، ولكن نور الدين رفض التأجيل وخشي أن يكون صلاح الدين يماطل فهدده أنه سوف يسير إليه بحملة، وأرسل إمامًا

سنيًا من الموصل إلي مصر، فاعتلي المنبر في مسجد القاهرة ودُعي إلي الخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي. توفي الخليفة العاضد في ١٠ محرم عام ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧١ م، وهو الخليفة الفاطمي الرابع عشر وآخر الخلفاء الفاطميين وانتهت بموته الخلافة الفاطمية في مصر والتي استمرت حوالي ٢٠٠ عام.

## صلاح الدين الأيوبي

## توتر العلاقة مع الزنكيين

ما إن تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم في مصر حتى بدأت الوحشة بينه وبين نور الدين محمود، اعتقد نور الدين أن صلاح الدين يعمل للاستقلال بحكم مصر دونه، ومما زاد في الأمر شكًا أن صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية بدأ في تثبيت أقدامه في مصر، فأخذ في إنشاء القلاع والتفكير ببناء سور حول المدن الأربعة التي تألفت منها مدينة الفسطاط، وعزز مقام أقاربه وأبناء عشيرته في الجيش والحكومة، وأزال رجالات الدولة ممن لم يكن يثق بهم، بالإضافة لاختلاف وجهات النظر السياسية بين الرجلين، فقد رأى نور الدين في بلاد الشام أنها بمنزلة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافية والواردات المادية التي تسد نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدسوهو لم يناضل في ضمها إلا من أجل هذه الغاية، أمَّا صلاح الدين فقد كان مقتنعًا نتيجة للصراع بين القوى الثلاث الإسلامية والصليبية والبيزنطية حول مصر بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن مركز الثقل في العمليات العسكرية.

## صلاح الدين الأيوبي في شبابه.

قرر نور الدين المسير إلى مصر واخضاعها تحت حكمه في مناسبتين، الأولى: لما خرج صلاح الدين لمهاجمة حصن الشوبك بعد استيلاء الصليبيين عليه، وعرقلة سير التجارة بين مصر

والشام، وبعد حصار لم يدم طويلًا، لم تستطع الحامية الصليبية في الثبات والمقاومة، فأعطى صلاح الدين أهل الحصن مهلة من عشرة أيام للتسليم، لكن صلاح الدين لم يلبث أن ينال من الحصن حتى علم بسير نور الدين إليه لمساعدته، وعندئذ خشي صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه، فأسرع بالانسحاب والعودة إلى مصر، معتذرًا بإختلال الأحوال في مصر وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها. استاء نور الدين من مسلك نائبه وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره، ورأى فيه دليلًا صارخًا على تهربه منه، وظن أن صلاح الدين قد انفصل نهائيًا عنه، فقرر الزحف إلى مصر والإستيلاء عليها، الأمر الذي أخاف صلاح الدين، فعقد اجتماعًا مع أقاربه وبعض خاصته واستشارهم فيما ينبغي أن يُفعل، أشار نجم الدين أيوب على ولده أن يكتب إلى نور الدين بأنه خاضع له ومنفذ لأمره، فعمل صلاح الدين بنصيحة أبيه، وأرسل إلى نور الدين هدايا ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر. استلم نور الدين هدية صلاح الدين ومعها كتاب الولاء والطاعة، ولم يعد هناك من حجة يبرر بها الزنكي حملته على مصر.

الثانية: أراد نور الدين تجربة صلاح الدين فكتب إليه عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٣م أن يخرج لغزو الفرنجة في الكرك، على أن يسير هو أيضًا إلى هناك، فأيهما سبق صاحبه أقام إلى أن يوافيه الآخر، ذهب صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها، ولكنه ماكاد يعلم باقتراب نور الدين حتى رفع الحصار عن المدينة وعاد إلى مصر، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت، والذي كان يعاني سكرات النزاع، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين إلى القاهرة. لم يقتنع نور الدين زنكي باعتذار صلاح الدين وأيقن هذه المرة أن نائبه قد خرج عليه وخلع طاعته، فزاد غضبه ونفذ صبره، وأقسم لينتقمن منه أشنع انتقام، فصمم نهائيًا على فتح مصر والقيام بعمل حاسم ضد صلاح الدين، لكن القدر كان مع صلاح الدين، فما كاد نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر حتى وافته المنية عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٤، وفي هذا التاريخ كانت بداية الدولة الأيوبية.

## توحيد الجبهة الإسلامية

بعد أن زال خطر نور الدين، واجهت صلاح الدين عدد من المؤامرات منها: رفض الجماعات الشيعية المتواجدة في مصر الخضوع للحاكم الجديد، فقاموا عام ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧٤م بمؤامرة للانقلاب على حكم صلاح الدين، وكاتبوا شيخ الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وطلبوا منه أن يُبيِّت له مكيدة وحيلة، واتصلوا بويليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم الإسكندرية، بالإضافة لتنسيقهم مع عموري الأول ملك بيت المقدس. لكنهم أخطأوا بإشراكهم في سرهم الفقيه زين الدين علي بن أبي النجا الذي قام بإطلاع صلاح الدين على المؤامرة، فقام صلاح الدين بالقبض على قادة المؤامرة وتصفيتهم، لكن ملك صقلية واصل السير إلى الإسكندرية وحاول اقتحامها، وانتهت المعركة بين الطرفين بانسحاب ملك صقلية. كما واجه صلاح الدين خطر الجيش الفاطمي المؤلف من عدد كبير من الفرسان البيض وحوالي ثلاثين ألفًا من المشاه السود، كان معظم الفرسان البيض من الأرمن الذين خدموا في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، فكثر عددهم وزادت شوكتهم منذ ذلك الحين، فبدأ صلاح الدين في بناء جيش خاص به على حساب الجيش الفاطمي، وذلك بإخراج طوائف السودان والأرمن من القاهرة، وعندما اندلعت حركة التمرد التي أشعلها الجنود السود بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كان لدى صلاح الدين من القوات النظامية مايكفي للقضاء على معظم قوات التمرد وطرد فلولهم إلى الصعيد،[٤٢] أما الفرسان البيض في الجيش الفاطمي فلم يتحركوا للمشاركة في التمرد، وصاروا فيما بعد جزءً مهمًا من جيش صلاح الدين..

عندما توفي نور الدين محمود كان وريثه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل الذي كان عمره ١١ سنة، ولصغر سنه كثر من يطالب بولايته فبدأت المنازاعات في الشام، تطلع لهذه الوصاية عواصم كبرى في العالم الإسلامي آنذلك، فالموصل وحكامها الأتابكة تحت زعامة الملك سيف الدين غازي الثاني الذي سارع لضم البلاد المجاورة له وأعلن نفسه أميرًا على الجزيرة، كما تطلع لضم حلب ودمشق التي كان بها مقدم الجيش شمس الدين محمد الذي

اضطر لمهادنة الصليبيين ودفع جزية مالية لهم حتى يتقي هجومهم، وأرسل بطلب المساعدة من صلاح الدين، وحلب التي كان أكبر القواد فيها شمس الدين علي بن الداية، الذي استدعى الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب، لكن قائدًا آخر هو سعد الدين كمشتكين قبض على ابن الداية واستبد بأمر الملك الصالح. تحين صلاح الدين الفرصة حتى قرر الخروج إلى الشام عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٤، بعد أن ستغاث به قائد الحامية شمس الدين محمد بسبب أطماع الفرنج في دمشق وأعمالها مثل بانياس، فوصل الشام واستولى عليها من غير مدافع وبلا ضربة ولا طعنة. ثم غادر دمشق متوجهًا لحلب، فاخضع في طريقه حمص وحماة، أما حلب فقد استعصت على صلاح الدين حيث لجأ أمراء حلب إلى سنان شيخ الجبل زعيم الحشاشين لاغتيال صلاح الدين وأمدوهم بالأموال التي تغريهم على ذلك، فوثب عليه جماعة منهم أثناء نزوله حلب ولكنه نجا من المحاولة، ثم قام حاكمها كمشتكين بالاستنجاد بريموند الثالث أمير طرابلس، الذي كان يدرك خطورة سقوط حلب بيد صلاح الدين، فقرر مفاوضته، وأرسل إليه يرغبه بالصلح ويلوح له أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدًا واحدة، لكن صلاح الدين رفض الصلح مما دفع بريموند للإغارة على حمص التي كان صلاح الدين قد ضمها إلى دولته، فاضطر لترك حصار حلب لنجدة حمص، فنتج عن ذلك فك الحصار عن حلب. اتجه صلاح الدين نحو بعلبك فدخلها بدون قتال. ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله رسولًا يشرح فيه سبب قيامه بحملته على الشام، ويقول أن مجيئه للشام مطلبًا قوميًا وليس شخصيًا حيث قال: «والمراد الآن هو كل مايقوي الدولة، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة». ثم أعلن صلاح الدين نفسه ملكًا على مصر والشام بموافقة الخليفة العباسي في أواخر عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٥ م.

لم ينسى صلاح الدين محاولات الحشاشين لاغتياله، فأغار عليهم في مناطقهم في جبل السماق ثم عاد إلى دمشق. حاول صلاح الدين استمالة الزنكيين ولكنه لم يفلح في مسعاه، فتعرض لخطر كبير من حكام حلب والموصل وحلفائهم الذين جمعوا قواتهم لمهاجمته، فسار بجيشه حتى لقيهم على مسافة قريبة من حلب فدارت وقعة بين الطرفين عام ٥٧٠ هـ الموافق

١١٧٦ انتهت بانتصاره، عاد صلاح الدين لحصار حلب فتجددت الاتفاقية بينه وبين أمراء حلب والموصل على مساعدة كل طرف للطرف الآخر إذا ما اقتضت الظروف، وفي تلك الأثناء جرت محاولة أخرى من جانب الحشاشين لاغتيال صلاح الدين، فلما صالح الحلبين قصد بلاد الحشاشين فهاجم مصياف مقرهم الرئيسي عام ٥٧٢ هـ وحاصرهم، وقتل منهم أعداد كبيرة وهُدِّمت كثير من قلاعهم.

رجع صلاح الدين لمصر بعد أن تزوج من أرملة نور الدين زنكي في دمشق، وفي مصر قضى نحو ست سنوات ينظم فيها الشؤون الداخلية، وانصب اهتمامه على بناء القلعة وأسوار القاهرة الكبيرة لتأمينها من أي هجوم محتمل من جانب الصليبيين. في عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١م توفي الملك الصالح اسماعيل، وعلى الفور خرج صلاح الدين صوب حلب التي أعلن الخليفة العباسي أن حكمها من حقه، وعلم في الطريق أن حكام الموصل قد كاتبوا الفرنج وطلبوا منهم مهاجمة بلاد الشام ليشغلوا صلاح الدين، فعبر نهر الفرات وحاصر الموصل إلا أنه مالبث أن انصرف منها. في عام ٥٨١ هـ الموافق ١١٨٥م، اتجه صلاح الدين للموصل فحاصرها، وانتهى الحصار بإعلان الأمير عز الدين مسعود تبعيته لصلاح الدين. وبذلك تحققت لصلاح الدين الوحدة الإسلامية من الفرات إلى النيل.

كانت شمالي أفريقيا مرتبطة عضويًا بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، حاول صلاح الدين في عام ٥٦٨ هـ الموافق ١١٧٣م ضمها، حيث أرسل قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش وغلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس باستثناء المهدية وسفاقس وقفصة وتونس. كرر قراقوش محاولة التوسع الأيوبي شمالي أفريقيا فضم أوجلة الواقعة جنوبي برقة عام ٥٧١ هـ الموافق ١١٧٥م والدوحان وغدامس وبلاد هوارة وزوارة ولوتة ونفوسة عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١م.

كان ضم اليمن إلى مصر متصلًا في ذهن الأيوبيين بالقضاء على الدولة الفاطمية، فقد استأذن صلاح الدين نور الدين محمود في أن يسير أخاه توران شاه إلى اليمن لقصد عبد النبي

بن المهدي صاحب زبيد، أراد صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن يعد مفتاح بحر القلزم من ناحية الجنوب، وسيؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية، توجه توران شاه إلى اليمن فوصل زبيد عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٤م وملكها وقتل عبد النبي بن مهدي، ثم ضم عدن وصنعاء وتعز وسائر اليمن. كانت النوبة مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة، ولما قامت الدولة الأيوبية أراد صلاح الدين فتح النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من جهة الجنوب، أرسل صلاح الدين أخوه توران شاه عام ٥٦٨ هـ الموافق ١١٧٣م إلى بلاد النوبة ففتح إبريم وقوص.[٥٤][٥٥] تطلع صلاح الدين منذ استلامه مقاليد الحكم في تحصين مصر أما موجات الحملات الصليبية المتعددة، فحاول أن يحيط القاهرة والفسطاط بسور واحد حصين بعد أن تهدم أكثره، فعهد ببنائه لبهاء الدين قراقوش الخصي، فبدأ العمل سنة ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧١ وانتهى البناء عام ٥٧١ هـ الموافق ١١٧٦، وكان السور مبنيًا كله من الحجارة، يبدأ شماله عند قلعة المقس المطلة على النيل، ويظل يطوف بالقاهرة والفسطاط حتى ينتهي عن النيل جنوب الفسطاط، يقول المؤرخون أن محيط السور بلغ تسع وعشرين ألفًا وثلاثمئة وذراعان. ثم قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزًا للحكام وملجأ للناس عند الضرورة.

## الصراع مع الصليبيين

بعد أن تمكن صلاح الدين من تأليف جبهة إسلامية متحدة تمتد من الفرات شرقًا إلى برقة غربًا، ومن الموصل وحلب شمالًا إلى النوبة واليمن جنوبًا، وجه اهتمامه لمحاربة الصليبيين. كانت بداية الصراع الأيوبي الصليبي عام ٥٧٣ هـ الموافق ١١٧٧ عندما هاجم الصليبيون بعلبك وأطراف دمشق، فقام صلاح الدين بمهاجمة غزة وعسقلان، ووقعت بين الأيوبيين والصليبيين بقيادة بلدوين الرابع معركة في تل الصافية القريب من الرملة انتهت بهزيمة صلاح الدين، وفيها يقول صلاح الدين: «لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده سبحانه، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر».

في عام ٥٧٤ هـ الموافق ١١٧٨ سار بلدوين الرابع لغزو دمشق، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه عز الدين فرخشاه على رأس جيش كبير استطاع من الحاق الهزيمة بالصليبيين. في عام ٥٧٦ هـ الموافق ١١٨٠ عقد ملك بيت المقدس وصلاح الدين هدنة لمدة سنتين، شملت جميع المدن التي كانت بيد الصليبيين ماعدا طرابلس وانطاكيا، لكن أرناط صاحب الكرك نقض الهدنة وقام بحملة بحرية على شبة الجزيرة العربية هدفها الهجوم على مكة والمدينة، وأخذت سفنه تغير على الموانيء المصرية الصغيرة على بحر القلزم، حتى وصلت إلى ميناء عيذاب، وهناك استولى الصليبيين على سفن تجارية من جدة واليمن وعدن والهند، فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم نحو سنة عشر مركبة، ثم نقلوا نشاطهم إلى شاطيء الحجاز وأغاروا على ميناء رابغ القريب من مكة. قام صلاح الدين بتوجيه أخيه العادل في مصر لاعداد أسطول بحري في بحر القلزم تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ متولي أساطيل مصر، وقام بحصار أيلة وظفر بمراكب الفرنج فيها، ثم تعقب السفن الصليبية عند عيذاب ووحول شواطيء الحجاز، وكان الجزء الأكبر موجودًا على شاطيء الحوراء، فقاتل الفرنج قتالًا شديدًا وانتصر عليهم، وحمل من أسر منهم وعرضوا في شوارع القاهرة راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق، لكن صلاح الدين أقسم ألا يغفر لأرناط فعلته وأن يدمر حصنه ويقتله، فشن هجومين على الكرك، ولكن الهجومين فشلا في تحقيق غرض صلاح الدين.

في عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١ عقد صلاح الدين صلحًا مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كونتين الثاني، كفل بها عدم مساهمة الأسطول البيزنطي في أية حركة هجومية على مصر، ومن ذلك الوقت استمرت العلاقة بين مصر والبيزنطيين علاقة ود وتعاون حسنة دون حرب. ثم في عام ٥٨٠ هـ الموافق ١١٨٤ وقع الصليبيين هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات.

كان صلاح الدين يتحين الفرصة لتحرير بيت المقدس. ففي الجانب الصليبي كانت مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى تعاني من مشكلات داخلية عصية على الحل، فبذور الشك أصبحت متزايدة بين حاكم مملكة بيت المقدس بلدوين الرابع وبين بوهيمند الثالث

أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس كما جاءت في وقت تعاني فيه مملكة بيت المقدس من مشاكل حول صحة بلدوين الرابع ومشكلة وراثة العرش، قرر البطريرك هيراكليو وأم بلدوين وأخته سيبيلا أن يجعلوا الوصاية على العرش لغي دي لوزينيان زوج سيبيلا، الذي تمكن من فرض سيطرته على مملكة بيت المقدس باستثناء بيت المقدس، لكن بلدوين ما لبث أن تشاجر مع لوزينيان وخلعه من الوصاية على عرش بيت المقدس، ونتيجة لذلك هاجم بلدوين يافا واستولى عليها، ولكن لوزينيان صد هجومه عند عسقلان. على الصعيد الخارجي كانت علاقات صلاح الدين تتوثق مع المدن الإيطالية ومع حاكم الإمبراطور البيزنطية الكيسوس كومنين الثاين، بعد وفاة بلدوين الرابع، تم توقيع معاهدة بين الصليبيين والأيوبيين تنص على سريان هدنة بين الطرفين مدتها أربع سنوات، وتسلم الحكم بلدوين الخامس سنة ١١٨٥م، ولكنه توفي بعد ذلك في عام ١١٨٦م، لتدخل بعدها مملكة بيت المقدس في صراع على وراثة الحكم شارك فيه أمير طرابلس ريموند الثالث، فثارت شكوك حول وفاة بلدوين الخامس أهي وفاة طبيعية أم أن الأطراف الطامعة في تاج مملكة بيت المقدس كانت وراء هذه الوفاة حيث يشار على أنه مات مسموماً، ووصل الأمر إلى أن أصبح الصليبيون يشكلون معسكرين متعادين حول وراثة حكم مملكة بيت المقدس فريق يؤيد غي لوزينيان وحكمه للقدس، وفريق آخر معارض لهذا الحكم ويرأسه ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية، وبعد عدة تقلبات في الأحداث تولى لوزينان عرش بيت المقدس.

في عام ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧ عاد أرناط إلى الاعتداء على قوافل المسلمين والاعتداء على الحجاج المتجهين نحو مكة، فأرسل صلاح الدين إلى نوابه وتابعيه في كافة أنحاء دولته يطلب منهم القدوم بجيوشهم لقتال الصليبيين، وانطلق على رأس قوة كبيرة لحماية قافلة من الحجاج العائدين من الحجاز، وبدأت الفرقة المصرية التي وصلت للانضمام لصلاح الدين بالإغارة على الكرك والشوبك، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق حيث تجمعت الجيوش القادمة من دمشق وحلب ومابين النهرين ومصر وديار بكر لتشن هجومًا على طبرية، وعند صفورية عام ١١٨٧م انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا في معركة دارت بين الطرفين، حيث قضى المسلمون

تمامًا على القوة الصليبية التي اشتبكوا معها. تجمع الصليبيون أمام عكا في جيش يزيد عن عشرة آلاف مقاتل، في حين رصَّ صلاح الدين قواته عند عشتراء التي كانت تتألف من اثني عشر ألف فارس، وعدد مماثل من القوات الغير نظامية، انطلقت قوات صلاح الدين إلى فلسطين حيث عسكرت على التلال المشرفة على بحيرة طبريا، واستولت على مدينة طبريا، عبر صلاح الدين بقواته نهر الأردن ثم عسكر عند كفر سبت، قام الملك جي لوزينان بعقد مجلس حربي انتهى باعطاء أوامره بالتحرك صوب طبرية، حيث عسكر الصليبيون في صفورية بجيش ضخم يقارب جيش المسلمين. في يوم الجمعة تحرك الجيش الصليبي من بساتين صفورية باتجاه طبرية، حتى وصل للهضبة التي تعلوا حطين مباشرة، ولكن صلاح الدين كان قد استولى على موقع المياه في طبرية، وأمر باضرام النيران في الحشائش الموجودة في المنطقة. في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧م اشتبك الجيشان في حطين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وأسر الملك غي دي لوزينيان وأخاه أمالريك، أما أرناط فقد قتله صلاح الدين.

فتح انتصار صلاح الدين في حطين أمامه الطريق لاسترداد المدن الساحلية الواقعة جنوبي طرابلس، فأسرع مستغلًا الموقف وذلك ليقطع الصلة بين الصليبيين وبلاد الشام وبين أوروبا، فاسترد عكا، الذي لم يفكر حاكمها جوسلين في شيء سوى سلامته، وعرض على صلاح الدين تسليم المدينة مقابل تأمين الأرواح والممتلكات، ويافا وقيسارية ويافا، بعد ذلك تحرك الجيش إلى الساحل اللبناني، وكان معظم الناجين من معركة حطين قد فروا إلى مدينة صور، التي كانت مدينة جيدة التحصين، وشن عليها صلاح الدين هجومه الأول ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فواصل سيره نحو صيدا التي استسلمت له، ثم استسلمت بيروت وجبيل. توجه صلاح الدين إلى غزة، واقتحمها وهزم حاميتها، ثم استولى على عسقلان بعد ذلك، في هذا الوقت وصل سفراء أهالي بيت المقدس للتفاوض حول شروط استسلام القدس، لكن المفاوضات فشلت، فأقسم صلاح الدين أن يستولي عليها بالسيف. تولى القائد الفرنسي باليان قيادة جيش بيت المقدس، وقام بتجنيد كل فتى يفوق سنة السادسة عشر، في عام ٥٨٣ هـ

الموافق ١١٨٧ م اتجه صلاح الدين صوب القدس، وعسكر أمام المدينة، وبدأ هجوم المسلمين، بعد خمسة أيام من الهجوم غير صلاح الدين موقعه إلى جبل الزيتون المطل على القدس، وبعد حصار دام أيامًا، اتفق صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفق شروط تنص على: أن يدفع الصليبيون فدية عن أنفسهم بمعدل عشرة دنانير للرجال وخمسة دنانير عن كل مرأة ودينارين عن كل طفل، وأن يسمح للمسيحيين الشرقيين من أهل الشام واليونانيين بالبقاء في المدينة.

دخل صلاح الدين القدس في ليلة المعراج يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م، وبهذا سقطت مملكة بيت المقدس بيد صلاح الدين.

أرسل صلاح الدين أخوه العادل لحصار حصن الكرك، انتهى الحصار بتسليم الحصن، ثم تحرك الجيش الأيوبي صوب طرابلسوأنطاكية، وأحرز الجيش بعض الانتصارات الصغيرة، وانتهى تحرك الجيش بعقد هدنة بين صلاح الدين وبوهيموند أمير أنطاكية. لم تبقى بأيدي الصليبيين في بلاد الشام سوى صور وأنطاكية وطرابلس. كان لسقوط القدس في يد المسلمين رد فعل كبير في أوروبا. وقد بشر البابا كليمنت الثالث بحرب صليبية لاستعادة القدس وهي ما عرفت بالحرب الصليبية الثالثة، فقام الملك فريدريك باربا روسا في ألمانيا وريتشارد قلب الأسد في إنجلترا وفيليب الثاني في فرنسا بإعداد الحملة الصليبية الثالثة.

سارت الجيوش الثلاثة كل في طريق منفصل، انحرف ريتشارد ليستولي علي قبرص، أما فريدريك باربا روسا فسار من طريق بلادالبلقان ولكنه غرق عندما كان يعبر نهرًا في صقلية. فضَّل صلاح الدين الدخول في مفاوضات مع الحملة قبل اللجوء إلي الحرب، ولإثبات حسن النية أفرج عن الأسري الصليبيين، ولكن رد الصليبيين جاء بأن يسلم صلاح الدين القدس إلي الصليبيين ويسحب جيشه إلي مصر. فشلت المفاوضات وبادر الصليبيون بالهجوم علي عكا وحصارها، وتدفقت امدادات الصليبيين من ميناء صور، استمر الحصار اثنين وعشرين شهرًا حتي استسلمت عكا في عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٩١ م، وفق شروط هي: تسليم المدينة بما فيها من أسلحة للصليبيين، وأن تدفع فدية مئتي ألف دينار للمسلمين، وأن يطلق سراح ألف وستمئة أسير من الفرسان الصليبيين، وأن يسترد الصليبيون الصليب المقدس، وأن يخرج

المسلمون سالمين من المدينة. بتأمين عكا وصور تدفقت الجيوش الصليبية علي طول السواحل، واحتل ريتشارد حيفا وعسقلان، في عام ٥٨٨ هـ الموافق ١١٩٢ م عادت الحرب بين الطرفين بعد توقف وتقدم ريتشارد نحو القدس ولكنه لم يستطع احتلالها. تجددت المفاوضات وتمت اتفاقية بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سميت بصلح الرملة، وبموجبه اتفق الطرفان على يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، وتكون عسقلان بأيدي المسلمين على أن يجري تخريبها، يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفة، يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحريَّة، للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر، مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. اشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التي شملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس في المعاهدة، وعليه انتقل العرش الصليبي من بيت المقدس إلي إمارة طرابلس التي زادت قوتها بانتقال ملوك بيت المقدس إليها.

بعد أن تم الصلح، رحل صلاح الدين من القدس، وقام بجولة لبعض مدن الشام قبل أن يصل لبيروت حيث زار فيها بوهمند الثالث صاحب أنطاكيا، حيث تم التوقيع على صلح نهائي بين الطرفين. ثم واصل طريقة لدمشق، قضى فيها أربعة أشهر، ثم مالبث أن مرض وتوفي في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ الموافق ٤ مارس ١١٩٣ م.

## الدولة بعد صلاح الدين

## العادل أبو بكر بن أيوب

تعرضت الدولة الأيوبية التي كانت تضم الشام وفلسطين ومصر إلي التقسيم بعد وفاة صلاح الدين نتيجة التنافس بين أفراد أسرته، فكانت مصر من نصيب ابن صلاح الدين عماد الدين أبي الفتح عثمان الذي لقب بالعزيز، ودمشق من نصيب ابنه الثاني الأفضل نور الدين

علي، وحلب من نصيب ابنه الظاهر غازي غياث الدين، والكرك والشوبك من نصيب العادل أخو صلاح الدين، استقل أولاد عم صلاح الدين ببعض مدن الشام واليمن، فاحتفظ سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدينباليمن وجزيرة العرب، وأخذ الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بعلبك وأعمالها، واستمر الملك منصور الأول محمد بن تقي الدين عمر في حكم حماة. تنافس كل من العزيز والأفضل ابني صلاح الدين علي السيطرة علي بيت المقدس، انتهى هذا التنافس بالاتفاق على ترتيب جديد لحكم الأسرة الأيوبية يقضي بأن: يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية، ويتخلى عن بيت المقدس وماجاورها للعزيز، ويتخلى الأفضل عن جبلة والاذقية لأخيه الظاهر غازي، ويعترف العزيز بسيادة الأفضل، في فترة النزاع الأيوبي على السلطة استولى الصليبيين على مدينة جبيل وقلعتها عام ٥٩٠ هـ الموافق ١١٩٤م، وخرج الملك الأفضل لاستردادها لكنه لم يستطع. ولَّى العزيز الوزارة في مصر لعمه العادل الذي بدأ يثبت أقدامه في الحكم حتي أصبح صاحب السلطة الحقيقية، قام العادل والعزيز بالاستيلاء على دمشق وتجريد الأفضل من إمارته، واتفق الأطراف الثلاثة على أن يأخذ الأفضل صرخد، ويملك العادل دمشق وأواسط الشام، ويتولى الملك العزيز السلطنة وتبقى له مصر وبيت المقدس، استمرت الهدنة حتي توفي العزيز عام ٥٩٥ هـ الموافق ١٢٠٠م.

بعد وفاة العزيز تولي ابنه ناصر الدين محمد حكم مصر، ولقب بالملك المنصور، وكان الأفضل وصيًا علي ابن أخيه المنصور الذي كان لايزال صغيرًا، ونازعه في الأمر عمه العادل، واتفقا على أن يحكم العادل مصر ويحكم الأفضل ديار بكر. بمجرد حصول العادل علي الوصاية قرر خلع السلطان الصغير وتولى حكم مصر منفرداً سنة ٥٩٦ هـ الموافق ١٢٠٠م، ثم قام بعد ذلك ببسط نفوذه علي الشام، وبذلك عادت دولة صلاح الدين تحت حكم سلطان واحد.

لم تنقطع إغارات الصليبيين علي المدن التي تخضع تحت سيطرة المسلمين، فكان العادل يرسل بالمدد لأمراء المدن الإسلامية في الشام ليصدوا هجمات الصليبيين، وكان كثيراً ما يخرج بنفسه لقتال الصليبيين ويردهم إلي المهادنة، ومنها حملة هنري السادس امبراطور ألمانيا، التي

وصلت حملته عكا عام ٥٩٤ هـ الموافق ١١٩٧م، ودارت بين الصليبيين والأيوبيين معركة عند تل العجول قرب غزة انتهت بهزيمة الصليبيين، كما انتهت الحملة بموت هنري السادس. كان البابا أنوسنت الثالث قد أعرب علنًا عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، في عام ٦٠٠ هـ الموافق ١٢٠٣م وصلت سفن الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية بقيادة الكسيوس ابن الإمبراطور اسحاق الثاني، واعتقد الصليبيون أن بيزنطة كلها سوف ترحب بهم، ولكنهم اكتشفوا أن جميع أبواب القسطنطينية أغلقت في وجوههم، وأن الجنود البيزنطيين مرابطين فواق أسوارها، وفشلت المحاولات الأولى التي قام بها الأسطول الصليبي لمهاجمة الأسوار، وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة في الأسوار، وفكر الكسيوس الثالث من الفرار مع ابنته ولجأ مدينة موزينو في تراقيا، فما كان من حاشية القصر إلا أنهم أخرجوا الإمبراطور المعزول إسحاق من السجن وأعادوه على عرشه وبذلك توقف القتال، وتم الاتفاق على تنصيب الكسيوس الصغير قسيمًا لأبيه في حكم الإمبراطورية وتسمى بعد ذلك الكسيوس الرابع. في عام ٦٠٢ هـ الموافق ١٤٠٤م وقعت ثورة في القصر الإمبراطوري، وتم عزل الكسيوس وألقي به في السجن حيث توفي ولحق به أبوه، تولى الحكم الكسيوس الخامسالذي وقف موقفًا مضادًا ضد الصليبيين، ومع هذا التطور اتجه الأخيرون لمهاجمة القسطنطينية، وحل بالمدينة القتل والسلب والتدمير. ثم بدأت محاولة الحملة الصليبية السيطرة على بلاد الشام حيث أرسلت قوات قليلة من القسطنطينية، وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيدالمصرية ومدينة فوة القريبة منها، عندما علم أمالريك الثاني ملك عكا بعدم قدوم الحملة الصليبية واستقرارها في بيزنطة، سعى أمالريك لعقد هدنة مع الملك العادل الذي رحب بعقد الهدنة، وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة ١٢٠٤م.

في عام ٦١٤ هـ الموافق ١٢١٧م بدأت قوات الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى عكا، وكانت القوات المجرية في طليعة الواصلين بقيادة الملك أندريه الثاني، ولحق به ليوبولد السادس دوق النمسا، ثم لحق بهما هيو ملك قبرص، وأرسل ليوبولد فور وصوله عكا سفارة إلى بوهيموند الرابع، وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين، وتجمع لدى الصليبيين أكبر جيش

لهم منذ الحملة الصليبية الثالثة، خرج بعدها الصليبيون من عكا ليشنوا هجومًا مباغتًا ضد دمشق في جيش ضخم، عندما علم العادل بتحركهم خرج من مصر إلى فلسطين وتابع طريقه إلى نابلس آملًا أن يقطع الطريق عليهم عند عين جالوت، لما علم الصليبيون بقدومه غيروا خطتهم واتجهوا نحوه، وساروا إلى مدينة نيسان في الوقت الذي سار فيه العادل نحوها بعد أن تحص بها، نتيجة لتفوق الصليبيين تجنب العادل الاشتباك معهم، فواصلوا هجومهم على المدن الإسلامية وحاصروا بانياس ووصلوا إلى حوران، ثم عادوا إلى عكا. ظل الوضع هادئًا حتى عام ٦١٥ هـ الموافق ١٢١٨ م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا، وقرر مجلس الحرب الصليبي الذي اجتمع في عكا مهاجمة دمياط، وصل الصليبيين دمياط بقيادة الملك يوحنا دي بريان، فنزل أفراده إلى البر، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة للمدينة، عندما علم الملك العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصَّفر، انتقل إلى عالقين بظاهر دمشق، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل، وطلب من ابنيه المعظم عيسى والأشرف موسى أن يغيرا على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم ذلك عن دمياط.

ظل الوضع متجمدًا قُرابة أربعة أشهر، نفذ خلالها الصليبيون محاولات عديدة لاقتحام برج السلسلة، انتهت بنجاح الصليبيون في دخول برج السلسلة والاستيلاء عليه، حيث قاموا بإقامة برج على سفينتين أحكم ربطهما معًا بالحبال، وجرت تغطيته بالجلد والنحاس الأحمر لحمايته من النار، ووضعوا فوقه سلمًا متحركًا حتى أضحى كالقلعة العائمة. مات بعدها الملك العادل سنة ٦١٥ هـ الموافق ١٢١٨ م أثناء وجوده في الشام ودفن في أحد المساجد بدمشق، وترك أبناءه الثلاثة يحكمون الدولة الأيوبية في مصر والشام، الكامل في مصر والمعظم عيسي في دمشق والأشرف موسي في حلب.

## الكامل محمد بن العادل

تولي الكامل بعد أبيه العادل في ظروف حرجة حيث استولي الصليبيون علي دمياط، فراح يستجد بالمسلمين من حوله، ولكن حكام المسلمين كانوا في هول من هجمات المغول التي بدأت تدق أبواببغداد، فجهز الكامل قوة برية تدعمها عشرات السفن وهاجم المعسكر الصليبي إلا أنه اصطم بخنادق دمياط، ثم نصب جسرًا عظيمًا ليمنع العدو من سلوك النيل، لكنهم استطاعوا من قطعه، وسلكوا النيل ولم يفلحوا في الوصول إلى القاهرة، ولسوء الأحوال الجوية توقف القتال مدة من الزمن. لما علم عسكر الشام بموت الملك العادل، ما كان من العسكر إلا أن اتفقوا مع القائد عماد الدين أحمد بن المشطوب، وعزموا على خلع الملك الكامل وأن يملكوا الديار المصرية أخاه الفائز إبراهيم، ولما أحس الكامل بذلك خرج من معسكره في العادلية توجه إلى الشام، فساد الفزع أرجاء المعسكر وترك الجنود خيامهم وأسلحتهم، ولما علم الصليبيين بذلك خرجوا إلى دمياط وملكوها واستولوا عليها. وصل الملك المعظم عيسى من الشام لنجدة أخيه وانهى تمرد ابن المشطوب. دعا الملك الكامل الجهاد في البلاد الإسلامية فوصله المدد من أخويه المعظم والأشرف، وأخذ يستعد لشن هجوم على الصليبيين لكنه تراجع لهبوب عاصفة عام ٦١٦ هـ الموافق ١٢١٩م. حال استمرار تدفق الإمدادات والمؤن من الغرب الأوروبي وقبرص على الصليبيين، وتواتر الأخبار من الشرق الإسلامي عن تقدم الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان باتجاه الدولة الخوارزمية، من مواصلت قوات الملك العادل القتال ضد الصليبيين، واقترح الكامل على الصليبيين شروط بالغة السخاء، شملت: أن يتنازل عن أراضي بيت المقدس باستثناء الكرك والشوبك، مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين مدتها ثلاثين سنة. لم يتردد الإمبراطور فريدريك في أن يقبل هذا العرض، لكن البابا في روما رفض العرض ووبخ الإمبراطور فريدريك علي قبوله للعرض، فعرض السلطان الكامل عرضًا آخر وهو أن يتنازل عن نابلس وصيدا وعسقلان وطبرية واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، دفع مبلغ خمسة عشر ألف مقابل الكرك والشوبك، دفع تكاليف إعادة تحصين بيت

المقدس وباقي القلاع التي خربها المسلمون في بلاد الشام، تشكيل مجلس لتحديد تكاليف البناء، إعادة صليب الصلبوت، تستمر الهدنة مدة ثلاثين سنة، وضمانًا لحسن تنفيذ العرض تعهد الكامل بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها إعادة تحقيق ما تقدم. لكن البابا رفض هذا كله وهدد فريدريك أن ينزع منه مملكته في أوروبا إذا عقد صلحًا مع المسلمين، فلم يبق للسلطان الكامل إلا ان يقاتل ليحرر دمياط من الصليبيين. واصلت الحملة حصار دمياط، وتعذر على الكامل إمداد المدينة بالمؤن والمقاتلين، وفي عام ٦١٦ هـ الموافق ١٢١٩م سقطت دمياط بعد حصار دام تسعة أشهر، واستعد الصليبيون لزحف نحو القاهرة، وكان الموقف ينبيء بانتصار الصليبيين فهم أكثر سلاحًا وعدة، لكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة الأرض المصرية وما تمتلئ به من قنوات الماء. اختار الكامل مكانًا أكثر ملائمة للقتال لوقف الزحف الصليبي باتجاه القاهرة، فنقل معسكره إلى المنطقة التي تقع جنوب بحر أشموم طناح والشاطيء الشرقي للنيل، قبالة قرية جوهر، وبنى فيها قلعة جديدة أسماها المنصورة، من الجانب الصليبي بادروا ببناء حصني تورون وبوتا في دمياط، الذين حدا من نشاط السفن الأيوبية. تحركت القوات الصليبية في عام ٦١٨ هـ الموافق ١٢٢١م من دمياط إلى العادلية استعدادًا للتقدم جنوب دمياط بحذاء النيل، حتى وصلت فارسكور، فلما تقدم الصليبيون نحو دمياط قام المصريون بفتح سدود المياه من كل جانب فتدفقت المياه وأغرقت القوات الصليبية، ولم يستطيعوا التقدم خطوة واحدة، فشقوا طريقهم وسط الوحل مرتدين إلي الشاطئ، استقر رأي القادة الصليبيين على عرض الصلح على المسلمين، ومال الكامل للقبول بالعرض، وفيه أن تسلم دمياط للكامل وأن يسترد الصليبيون رهائنهم ومنهم ملك عكا، وبذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة.

كان لتضامن ابنا العادل الكامل والمعظم وتكاتفهما أثر لا يُنكر في تحقيق النصر وإفشال الحملة الصليبية الخامسة،[٩٢] لم تكد تمضي سنوات معدودة حتى شبَّ صراع بين السلطان الكامل وأخيه المعظم عيسى صاحب دمشق، واستعان كل منهما بمن يحقق له الظفر، فاستعان المعظم عيسى بالسلطان جلال الدين الخوارزمي سلطان الدولة الخوارزمية، واستنجد السلطان

الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني، وتعهد له بمنحه بيت المقدس، وجميع فتوحات صلاح الدين بساحل الشام، بادر الملك المعظم بتجهيز العساكر في نابلس لحماية القدس من مطامع الإمبراطور، لكن الموت عجل بالمعظم وخلفه ابنه الناصر داود، وانهار التحالف بين خوارزم شاه والمعظم. في عام ٦٢٥ هـ الموافق ١٢٢٨ م بدأ الإمبراطور فردريك الثاني الحملة الصليبية السادسة على رأس جيش صغير،[٩٤] فمر على قبرص واحتلها، ثم قصد عكا، واحتل صيدا. بعد مفاوضات طويلة بين فريدريك والكامل توصل الطرفان لاتفاق يافا، نصت على: تُسلم القدس للإمبراطور فريدريك على أن تظل أسوار المدينة وتحصيناتها خرابًا وألا تجدد الأسوار، يأخذ الفرنج بيت لحم والناصرة، ألا يكون للفرنج موطئ قدم خارج مدينة القدس، وأن تظل قرى بيت المقدس في أيدي المسلمين، قرى بيت المقدس والضاحية يديرها والي مسلم، وتكون البيرة مقرًا له، يظل الحرم القدسي بما فيه من المعالم، كالصخرة والمسجد الأقصى، في أيدي المسلمين، ويظل شعار الإسلام فيه ظاهرًا، ألا يسمح للفرنج بدخول القدس إلا بغرض الزيارة، يكون المتولون على الأماكن المقدسة من المسلمين، تكون القرى الواقعة على الطريق بين القدس وكل من عكا ويافا تحت إدارة الفرنجة لحماية أرواح الحجاج وضمان سلامتهم، يتعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى لو كان من الفرنج وعدم تقديم أية مساعدة لحكام أنطاكيا وطرابلس وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام.[٩٥] دخل فريدريك القدس واستلمها من القاضي شمس الدين يوم الأحد ١٨ مارس ١٢٢٩ م الموافق ٦٣٦ هـ و دخل كنيسة القيامة وتوج نفسه ملكًا علي القدس. بذلك عادت القدس للصليبيين. أكمل السلطان الكامل بناء قلعة الجبل، كما أنشأ مدينة جديدة هي مدينة المنصورة في الموقع الذي انتصر فيه علي الحملة الصليبية الخامسة.

## الصالح نجم الدين أيوب

ولي العادل الثاني سيف الدين أبو بكر حكم مصر بعد وفاة ابيه السلطان الكامل مما أدي إلي أن يسعي أخوه الأكبر سنًا الصالح نجم الدين أيوب لاستعادة حقه في تولي السلطنة، وواتته

الفرصة نتيجة سياسة أخيه التي أثارت مشاعر الأمراء عليه فقبضوا عليه واستدعوا الصالح نجم الدين أيوب الذي اصبح سلطانًا علي مصر عام ٦٣٧ هـ الموافق ١٢٤٠م.

واجه السلطان الصالح ثورات بعض طوائف الجند، فبدأ في تكوين جيش جديد يخلص له ويطيعه فاشتري آلاف المماليك والأتراك الذين هجروا أوطانهم في آسيا الصغرى بسبب غارات المغول واتخذ الصالح أيوب منهم جيشًا نظاميًا. من أبرز آثار الملك الصالح في مصر قلعة الروضة التي أقام فيها مع مماليكه، وقد تزوج من جارية أرمنية هي شجر الدر والتي كان الخليفة العباسي قد أهداها له. وجد السلطان الصالح أيوب نفسه مهددًا بحلف صليبي مع أمراء دمشق الصالح اسماعيل، والكرك الناصر داود، وحمص المنصور ابراهيم، عمد الصالح أيوب إلى استدعاء الخوارزمية وتحريضهم على مهاجمة دمشق، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن استعان بالصليبيين مقابل تعهده لهم بأن تكون سيطرتهم على بيت المقدس تامة مطلقة، عبرت القوات الخوارزمية نهر الفرات حتى وصلت دمشق، ثم طبرية واستولوا عليها، ثم إلى نابلس وبيت المقدس، عندها أحس الصليبيون بالخطر الخوارزمي، في عام ٦٤٢ هـ الموافق ١٢٤٤م اقتحم الخوارزميون المدينة وجرى قتال شديد، استنجد على أثره الصليبيون بأمير أنطاكية وطرابلس وملك قبرص بحامية عكا وبحلفائهم من المسلمين في دمشق والأردن، فلم ينجدهم أحد سوى ما قام به الناصر داود في توسطه بخروج من يرغب من الصليبيين من القدس إلى الساحل.

بعد أن استولى الخوارزمية على بيت المقدس ساروا إلى الملك الصالح يخبرونه بقدومهم فأمرهم بالإقامة في غزة، وسير إليهم عسكرًا من مصر بقيادة ركن الدين بيبرس، فسار إلى غزة وانضم للخوارزمية، وهناك التقى الجيش المصري المتحالف مع الخوارزمية مع جيش حمص ودمشق المتحالف من الصليبيين، واستطاع بيبرس إلحاق الهزيمة بالتحالف الشامي الصليبي.

بعد معركة غزة سارع بيبرس للاستيلاء على غزة والساحل، والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، ثم حاصر دمشق وفيها الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت دمشق عام ٦٤٣ هـ الموافق ١٢٤٥م، وعوض الصالح

إسماعيل عنها ببعلبك وبصرى. أما الخوارزمية فقد انقلبوا على الصالح نجم الدين، بعد أن أقطعهم بلاد الساحل وكانوا يطمعون بدمشق، وأعلنوا الثورة على الصالح، وسارع الناصر داود والصالح إسماعيل بالانضمام إليهم، واستطاع نجم الدين الحاق الهزيمة بالخوارزميين بالقرب من حمص، وانتهى خطرهم بشكل نهائي.

قامت حملة صليبية جديدة تستهدف مصر، وكانت أشرس وأعنف من الحملة الأولي علي دمياط وهي الحملة الصليبية السابعة، وكان علي رأسها ملك فرنسا لويس التاسع الذي كان معروفًا بتدينه وتعصبه، استغرق الأوروبيون ثلاث سنوات وهم يعدون للحملة، وقام لويس بتجهيز أسطول كبير لنقل الجنود والعتاد عبر البحر بعد أن قرر استبعاد الطريق البري، واستأجر عدد من السفن من جنوة ومرسيليا، وغادر على رأس حملته من مدينة باريس إلى ليون، ثم إلى جنوب فرنسا حتى وصلقبرص، خلال هذه الأثناء تسربت أخبار الحملة على مصر، وعلم السلطان الصالح أيوب بأن الصليبيين يحتشدون في قبرص، وقدر أنهم سينزلون دمياط كما فعل اسلافهم، فحشد جيشه تجاه المدينة وقرر أن يحارب حربًا لا هوادة فيها. دخل الصليبيون مدينة دمياط عام ٦٤٧ هـ الموافق ١٢٤٩م دون قتال وحولوا مسجد المدينة إلي كنيسة وأقاموا بطريركًا فرنسياً للمدينة، تعود أسباب الاستيلاء السهل لمدينة دمياط من قبل الصليبيين إلى أحد القادة العسكرين في الطرف الإسلامي وهوالأمير فخر الدين بن الشيخ، إضافة لبعض أفراد القبائل العربية التي عهد إليها الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة وهم بني كنانة، قد تركوها وانسحب هؤلاء جميعًا إلى حيث يوجد معسكر الملك صالح أيوب في منطقة أسموم طناح، بالإضافة أنهم تركوا أبواب المدينة ممفتوحة وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربطها بالضفة العربية للنيل، وأصبحت دمياط بذلك مدينة مفتوحة.

قبيل سيطرة القوات الصليبية على دمياط أرسل الملك لويس رسائل تهديد للصالح نجم الدين، وطالبه فيها بالاستسلام وإرجاع الأراضي المقدسة للصليبيين، واعتبر أن الصالح أيوب ماهو إلا أحد نوابه. كان شهر يونيو شهر فيضان النيل فآثر الملك لويس أن ينتظر حتي ينتهي الفيضان حتي لا يقع فيما وقعت فيه الحملة الخامسة، عندما انتهي موسم الفيضان بدأ

لويس زحفه إلي القاهرة، وفي تلك الأثناء مات السلطان الصالح في المنصورة عام ٦٤٧ هـ الموافق ١٢٤٩م.

## مرحلة السقوط

استمرت الحملة الصليبية بعد وفاة الصالح أيوب، واستطاعت شجر الدر أن تخبيء نبأ وفاة السلطان، ودارت بين الأيوبيين والصليبيين معركة المنصورة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا من جهة، والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وفارس الدين أقطاي الجمدار وركن الدين بيبرس البندقداري من جهة أخرى، أسفرت المعركة عن هزيمة الصليبين هزيمة كبرى. قامت شجر الدر باستدعاء توران شاه ابن الصالح أيوب ليكون السلطان الجديد بعد موت أبيه جاء توران مسرعًا من حصن كيفا ومعه خاصة رجاله ومساعدوه، واستلم قيادة البلاد والجيوش فور وصوله وأظهر مقدرة حربية، وبمساعدة المماليك وضع خطة عسكرية محكمة لإجبار الصليبيين على التسليم حيث أمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم أعاد تركيبها وإنزالها خلف خطوط الصليبيين مما أدى لوضع الصليبيين في كماشة أدت لهزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع.

على الرغم من هذا الانتصار العسكري الكبير على الصليبيين إلا إن توران شاه كان يمثل تجسيدًا حقيقيًا لانهيار الأيوبيين الصغار، وبدلاً من أن يستغل الظروف الراهنة في توحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تمامًا، اتجه نحو أمراء المماليك وزوجة أبيه شجر الدر، وأخذ في التخطيط للقضاء عليهم. كان توران شاه كئيبًا متكبرًا سريع الغضب، فأصدر عدة قرارات صادر بمقتضاها إقطاعات الأمراء وحدد عدة أسماء ووضعها على قائمة التصفية، ووصلت أخبار هذه القائمة للأمراء فقرروا التخلص منه. في صباح يوم ٢٧ محرم ٦٤٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٢٥٠م كان السلطان توران في خيمته السلطانية فهجم عليه بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي وأقطاي الجمدار وضربوه بالسيوف فهرب منهم لكشك خشبي فأحرقوه

عليه فهرب منه ورمى نفسه بالنيل فضربوه بالسهام والنبال فقتل جريحًا غريقًا حريقًا، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر وقامت دولة المماليك.

صار المماليك بعد مقتل توران شاه أصحاب الحل والعقد، وكان من الطبيعي أن يعينوا أحدًا منهم لتبوء عرش السلطنة الشاغر، وأخيرًا قرر المماليك حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش فاختاروا شجر الدر لتولي العرش. غير أن حكم شجر الدر تعرض للنقد من قبل الخليفة العباسي المستعصم بالله، الذي عاب على المماليك تنصيب امرأة في الحكم، فاقتنعت شجر الدر واقتنع المماليك معها بضرورة تغيير رأس السلطة، فتزوجت من الأمير عز الدين أيبك وتنازلت له عن الحكم، بعد أن دام حكمها ثلاثة أشهر. وقف الأمراء الأيوبيون في الشام موقف العداء للنظام الجديد القائم في مصر، وقد جرت العادة منذ أيام صلاح الدين أن يكون للسلطان في مصر سيطرة على بقية الأمراء الأيوبيون في الشام، لذلك أرسلت شجر الدر عقب مبايعتها الخطيب أصيل الدين محمد لأخذ البيعة لها من أمراء الشام، ظل الأمراء الأيوبيون يعتبرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر وبلاد الشام بوصفهم سلالة صلاح الدين، وأن ماجرى يعد خروجًا للسلطنة في مصر على البيت الأيوبي، ورفضوا أن يحلفوا يمين الولاء للسلطانة الجديدة، وشاركهم بعض الأمراء المماليك في بلاد الشام، فقد رفض المماليك القيمرية في دمشق أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة، ولم يعترفوا بماجرى في مصر من تغيير في نظام الحكم، فكتبوا إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب يعلمونه بموقفهم الرافض ويستدعونه للقدوم إليهم ليسلموا له دمشق، كما خرج الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الأيوبي صاحب قلعة الصُبيبة من الديار المصرية احتجاجًا على ماحصل، فهاجم غزة وأخذها واستقر فيها، وثار الطواشي بدر الدين الصوابي الصالحي نائب الصالح أيوب بالكرك والشوبك، وسلم الحصنين إلى المغيث عمر الأيوبي بعد أن أخرجه من السجن، وخضعت باقي مدن بلاد الشام لأمراء من البيت الأيوبي، فستقر الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه في حصن كيفا وتصيبين، والكامل ناصر الدين محمد بن المظفر عازي في ميفارقين، والمنصور ناصر الدين محمد بن المظفر تقي الدين محمود في حماة، والأشرف مظفر الدين موسى بن

المنصور إبراهين في تل باشر والرحبة. انتهز الناصر يوسف الفرصة واستجاب لدعوة المماليك القيمرية، فزحف بجيوشه نحو دمشق ودخلها وخلع الأمير جمال الدين بن يغمور، وعلى الأمراء القيمرية وعلى جماعة من الأمراء المصريين من مماليك الصالح أيوب، وبذلك خرجت بلاد الشام من قبضة شجر الدر، وانقسمت الجبهة الإسلامية بين مصر المملوكية وبلاد الشام الأيوبية.

خشي المماليك على نظامهم الجديد من منافسة الأيوبيين، فتنادوا إلى اجتماع في قلعة الجبل لتدارس الموقف، جدد الأمراء والأجناد الولاء لشجر الدر وللأمير عز الدين أيبك أتابكًا وقائدًا للجيش، وقرروا الخروج من القاهرة للتصدي للأيوبيين، وإبعاد الناصر يوسف عن دمشق، إلا أنهم احجموا عن ذلك، ما حدا بالناصر يوسف الاستعداد لغزو مصر، تحرك الأيوبيون بزعامة الناصر باتجاه مصر لاستعادتها، وعندما علم أيبك بذلك قرر مواجهة الخطر الأيوبي بالطرق السلمية، فاختار بالاتفاق مع كبار المماليك صبيًا صغيرًا من بني أيوب في العاشرة من عمره هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل، وأقامه سلطانًا ليكون شريكًا له في السلطة، فكانت التواقيع والمراسيم تخرج باسميهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر، وضربت لهما السكة على الدنانير والدراهم. لكن الأمراء الأيوبيين أدركوا أن الأشرف لم يكن له غير الاسم، في حين كانت الأمور كلها بيد أيبك، واستمروا في استعداداتهم للزحف نحو مصر. عندئذ أعلن أيبك وضع البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية، وأنه يحكم بوصفه نائبًا عن الخليفة المستعصم بالله، وأقدم في الوقت نفسه بإلقاء القبض على الأمراء المماليك بميولهم للأيوبيين. أقدم الناصر يوسف على التماس مساعدة الصليبيين وعلى رأسهم الملك لويس التاسع المقيم في عكا، لكن أيبك بعد أن علم بالأمر أرسل إنذارًا للملك لويس التاسع بأنه سوف يقدم عى قتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة على دمياط، إن قام بأي عمل عدائي ضده، غير أن الملك لويس لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين. لما يَأس الناصر يوسف من استقطاب لويس، زحف بجيشه نحو مصر، ونسي زعماء المماليك البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتلوا وراء أيبك لصد الأيوبيين، خرج أيبك بجيشه والتقى

الجيشان الأيوبي والمملوكي في ذي القعدة عام ٦٤٨ هـ الموافق ١٢٥١ م عند العباسة بين بلبيس والصالحية، انتهت بانتصار المماليك ورجوع الناصر إلى دمشق، كان لهذه المعركة أثرها في تثبيت عرش أيبك، فقد أرسل بعد شهر جيشًا بقيادة فارس الدين أقطاي واستولى على غزة. استغل الملك لويس الصراع الإسلامي ونجح في ابرام اتفاق بينه وبين أيبك ينص على: أن يطلق كل الأسرى الصليبيين، وأن يعفى الملك عن بقية المبلغ المتبقي من الفدية، واتفق الطرفان على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر من الشام، فاستولى لويس على يافا، وعسكر المماليك في غزة، فأرسل الناصر جيش عسكر عند تل العجول قرب غزة، وكادت أن تقع معركة بين الطرفين لكن الصلح تم بينهما عام ٦٥١ هـ الموافق ١٢٥٣ م، بعد تدخل الخليفة المستعصم، وتقرر أن: يعترف الناصر بسلطة أيبك وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى الأردن، على أن تدخل غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني في حوزة الناصر، وأن يعترف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية الشام. قام أيبك بعد الصلح بالقضاء على فارس الدين أقطاي، ففر أتباعه إلى بلاد الشام للاحتماء بالأيوبيين، ومن بينهم ركن الدين بيبرس وقلاوون الألفي، وحثوا الناصر على مهاجمة مصر، فطلب الناصر من أيبك إعادة المناطق التي أخذها منه، فقرر أيبك إعادة البلاد إلى الناصر، وقرر الخروج من القاهرة للحدود المصرية للتصدي للأيوبيين، لكن الأمر انتهى بتدخل الخليفة العباسي مجددًا، وعقد اتفاق نص على: أن يستعيد أيبك ساحل بلاد الشام، وألا يأوي الناصر أحد من المماليك البحرية. قتل أيبك عام ٦٥٥ هـ الموافق ١٢٥٧ م فبايع المماليك ابنه نور الدين علي، وتولى سيف الدين قطز القيادة الفعلية لدولة المماليك واستطاع صد هجوم الأيوبيين المتحالفين مع المماليك أكثر من مرة.

## الغزو المغولي

كان الصراع الدائر في منطقة إقليم الجزيرة بين الملوك والأمراء المحليين الأثر الكبير في تفتيت وحدة الإقليم الأيوبي أما الزحف المغولي القادم من الشرق، الذي بدأ غربي آسيا ضمن سياسة توسعية، فقد سيطر على إمبراطورية الصين الشمالية، وأواسط آسا وفارس وبلاد الكرج

والقوقاز وروسيا وبولندا وآسيا الصغرى. عندما تولى مونكو خانمنصب الخان الأعظم على المغول وضع أمامه هدفين، الأول: القضاء على الحشيشة في فارس، والثاني: السيطرة على ماتبقى من العالم الإسلامي حتى أقاصي مصر، وعهد إلى أخيه هولاكو القيام بتنفيذ هذه المهمة بعد أن منحه إقليم فارس والولايات الغربية، وحدد له إطار العلاقات مع الخليفة العباسي، فوضع هولاكو خطته بالقضاء على الحشيشة ثم غزو المناطق الغربية وصولًا إلى مصر، وبعد أن حقق هدفه الأول سار لتحقيق هدفه الثاني وبدأ في غزو العراق. كانت الأوضاع في بغداد سيئة جدًا، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بالله بعدم جديته في إدارة شؤون البلاد العامة، وكانت الأخبار تصل إليه تباعًا باقتراب جيوش المغول ومع ذلك لم يستعد لمواجهتهم، حاصرت الجيوش المغولية عاصمة الخلافة بغداد، ثم دخلتها عنوة في شهر صفر عام ٦٥٦ هـ الموافق فبراير عام ١٢٥٨م ودمرتها، وكان الخليفة قد خرج منها وسلم نفسه للزعيم المغولي هولاكو دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان، انتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك، وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، ثم استسلمت الحلة والكوفة والموصل، وبذلك انتهت الخلافة العباسية في بغداد.

انتقل الاجتياح المغولي من العراق إلى بلاد الشام، وكان هولاكو قد أرسل أثناء حصار بغداد فرقة عسكرية بقيادة أريق نوين واستطاعت الاستيلاء على أربيل، ومن ثم أشرف المغول على بلاد الشام، وقد حرص الزعيم المغولي على أن يقوي سيطرة المغول على إقليم الجزيرة، وأن يخضخ بصفة خاصة الأمير الأيوبي الكامل محمد صاحب ميافارقين الذي رفض قبول السيادة المغولية. كانت بلاد الشام تحت سيطرة ثلاث قوى هي: قوة المسلمين المتمثلة بالملوك والأمراء الأيوبيين، وقوة الصليبيين، وقوة الأرمن في كيليكية، أما الملوك والأمراء الأيوبيين فقد حكموا مدن ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب وحمص وحماة ودمشق، إلا أنهم افتقروا إلى ربطة اتحادية فكان كل أمير يعمل مستقلًا عن الآخر مما أضعف قوتهم أما المغول، أما الصليبيون الغربيون فقد وقفوا موقف المتردد في الصراع المغولي الإسلامي، أما الأرمن في

كيليكية فقد حالفوا المغول وشجعوا على القضاء على الخلافة العباسية وعلى الأيوبيين في بلاد الشام، واشتركوا معهم في قتال المسلمين.

كان الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أقوى الأمراء الأيوبيين، وقد أوجس خيفة من تقدم المغول، وقدَّر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على بلاد الشام عاجلًا أم آجلًا، لذلك رفض تقديم نجدة للكامل محمد صاحب ميافارقين بناءً على طلبه لمقاومة المغول، كما أرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو يحمل الهدايا والتحف ويقدم الخضوع والولاء، ويطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة مصر من أيدي المماليك، أرسل هولاكو للناصر يوسف رسالة يأمره فيها بضرورة المجيء إليه وتقديم الخضوع دون شرط، لكن الناصر رفض القدوم لهولاكو، فقام هولاكو بقيادة جيشه للاستيلاء على غربي بلاد الشام، فسقطت في يده مدن ميافارقين ونصيبين وحران والرها والبيرة وحارم ثم اتجه إلى حلب وحاصرها من جميع الجهات، رفضت حامية المدينة بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين بن العزيز شادي التسليم للجيش المغولي، فقرر المغول الاستيلاء عليها فسقطت عام ٦٥٨ هـ الموافق ١٢٦٠ م. نتيجة لهذه الانتصارات المغولية السريعة والحاسمة وما صاحبها من قتل وتدمير، أدرك الناصر يوسف استحالة الوقوف وحده في وجه المغول، فقرر أن يطلب المساعدة من المماليك في مصر، وغادر إلى غزة، فانقضت مملكة الناصر يوسف في ذلك اليوم. لما تقدم المغول نحو دمشق كان المدافعون عنها قد هاجروا، كما أم الناصر لم يحاول حماية المدينة قبل مغادرته، فقرر أعيان المدينة تسليمها لهولاكو، لكن قلعة دمشق امتنعت على الجنود المغول وقاومتهم، فاقتحموها عنوه وهدموها. كانت نهاية الناصر يوسف على يد المغول، فقد قتل في جبال سلماس في أذربيجان حيث كان في زيارة لهولاكو وحصل منه على اعتراف بحكم بلاد الشام ومصر، وعندما علم بخبر هزيمة المغول في عين جالوت صادفه أثناء عودته بعض من نجا من الجيش المغولي، فقتلوه عام ٦٥٨ هـ الموافق ١٢٦٠م، وقتل معه أخوه الظاهر غازي والصالح سيركوه صاحب حمص وعدد من الأمراء.

## آخر الأمراء الأيوبيين

نظرًا لاحتلال المغول للعراق والشام قام سيف الدين قطز بعزل المنصور علي واعتلى سدة الحكم، وعندما تقدم المغول نحو فلسطين، تحرك الجيش المملوكي نجاه الشام، وجرت المعركة بين المماليك والمغول عند عين جالوت، وانتصر فيها المماليك، فتقدم قطز نحو بلاد الشام، ودخل دمشق، وكافأ من ناصره من الأمراء الأيوبيون بأن أعادهم إلى إماراتهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة، فأقر الأشرف موسى على حمص والرحبة وتدمر، كما أقر المنصور الثاني صاحب حماة على إمارته، أما السعيد حسن صاحب بانياس الذي تحالف مع المغول فقد قتله قطز. لما تولى ركن الدين بيبرس الحكم خشي قيام ثورة ضده في بلاد الشام من جانب بقايا الأيوبيين، وخشي من طموحات المغيث عمر صاحب الكرك، فعزم على القضاء عليه، وأعد حملة عسكرية من أجل هذه الغاية، لما علم المغيث بنوايا بيبرس كتب إلى الخليفة العباسي في القاهرة يشفع له، فكتب الخليفة إلى ركن الدين كتاب ستشفعه في المغيث، فأبقاه بيبرس على الكرك. لكن المغيث استمر في عدائه للمماليك فكتب إلى هولاكو في فارس يحثه على مهاجمة الشام، لما علم بيبرس بذلك تحايل على المغيث عمر حتى أحضره إلى معسكره في بيسان بفلسطين واعتقله، وعقد مجلسًا قضائيًا عرض فيه الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو، كما شهد الرسل الذين حملوا الكتب بذلك، فحصل بيبرس على فتوى تجيز قتله، فقتله عام ٦٦١ هـ الموافق ١٢٦٣ م، وضم بيبرس أملاكه، وبذبك تخلص من آخر الأمراء الأيوبيين المناوئين له.

## أنظمة الدولة

### النظام السياسي

كان السلطان الأيوبى يطلب من الخليفة العباسي بصفته الرئيس الأعلى لبلاد المسلمين تفويضًا يجعل حكمه فى مصر حكمًا شرعيًا، رغم أن سلطان الأيوبيين على البلاد التي تحت

أيديهم كان سلطانًا مطلقًا، ولم تكن للخلافة العباسية عليه أية نفوذ، ولكن سلاطين الدولة الأيوبية حرصوا على الحصول على هذا التفويض دومًا، وكان الناصر صلاح الدين أول مَنْ اتشح بخلعة الخليفة العباسي من سلاطين مصر الأيوبيين. يُعدُّ صلاح الدين أول مَنْ اتخذ لقب السلطنة من حكام مصر، وقد حصل على لقب سلطان، ولقب محي دولة أمير المؤمنين لأعماله الجليلة التي قام بها فى نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الإسماعيلي الشيعي، ونجاحه فى مناهضة الصليبيين وصدهم عن بلاد المسلمين. اتخذ صلاح الدين من لقب السلطان الملك الناصر لقبًا للتعامل، رغم حصوله على ألقاب عديدة تحمل فى طياتها معانى العظمة والأبهة والجاه، مثل: السيد العالم العادل المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين، كانت هذه الألقاب تبين عظمة ما بلغه سلاطين الدولة الأيوبية، خاصة أن لكل لقب من هذه الألقاب موقفًا عظيمًا وحادثًا جللا خاضه السلطان فمُنح اللقب على إثره. دُوِّنت الألقاب فى الرسائل التي تُبودلت بين السلاطين وملوك أوروبا، وفي الكتابات التاريخية، وعلى السكة والعمائر، والتحف الفنية، وفهارس دار الآثار العربية..

كان السلطان يقيم مع أسرته وحاشيته ورجال بلاطه فى قلعة الجبل، وهو رئيس الدولة الأعلى الذي له الحق فى الهيمنة على شئون الأمراء الخاصة والعامة، وفى تدرجهم الوظيفي، وفى توزيع الإقطاعات والجنود عليهم وتحديد أنصبتهم، وكان على السلطان تعيين موظفى الدولة وعزلهم، وتأديبهم والنظر فى المظالم وقيادة الجيوش فى الحروب. كان للدولة الأيوبية مجلس شورى تُقَرُّ من خلاله مشروعات الدولة الحيوية كإعلان حرب أو إبرام صلح أو إصلاح لهيكل من هياكل الدولة، وكان هذا المجلس يُسمَّى: مجلس السلطنة، وكان أعضاؤه من كبار موظفى الدولة للاستئناس بآرائهم ومشورتهم قبل الإقدام على تنفيذ المشروعات والخطط، ويتولى أمير المجلس الذي يشبه منصبه منصب كبير الأمناء الآن الأمور الخاصة بمجلس

السلطنة، وله حق التصرف فى شئون البرتوكول، كما كان يتمتع بالجلوس فى حضرة السلطان بحكم هذه الوظيفة.

نيابة السلطنة وظيفة استحدثها السلاطين الأيوبيون لأول مرة في التاريخ الإسلامي، واستمرت قائمة بعد ذلك حتى نهاية عصر المماليك، فأصبح النائب كأنه سلطان ثاني، ويشترك مع السلطان فى منح لقب الإمارة، وتوزيع الإقطاعات، وتعيين الموظفين، وتوقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين، والخروج على رأس فرق الجيش فى المواكب الرسمية، يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان، وكان يُلقَّب بكامل المملكة الشريفة الإسلامية، لأن من اختصاصاته تصريف أمور الدولة عامة سواء أكان السلطان بالقاهرة أم كان متغيبًا عنها. هناك نوع آخر من النيابة يقول عنه المقريزى: «يقوم النائب فيها بمهام الدولة إذا خرج السلطان إلى الصيد، أو سار على رأس الجيش فى حرب خارجية». كما اتخذ سلاطين الدولة الأيوبية فى مصر وزراء لم يحددوا سلطتهم، ولم يجعلوها مقصورة على التنفيذ، بل جعلوها سلطة مطلقة، فأصبحت الوزارة أعلى الوظائف وأرفعها، وأصبح صاحبها باب الملك المقصود، ولسانه الناطق، ويده المعطاءة.

بلغ من استئثار بعض خلفاء صلاح الدين بالسلطنة أن استغنوا أحيانًا عن وظيفة الوزير، ومن ذلك السلطان العادل الذي استوزر الصاحب صفي الدين بن شكر، ولكنه ما لبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة، وترك المنصب خاليًا دون أن يعين فيه وزيرًا حتى مات، وعندما تولى الكامل بن العادل السلطنة أعاد ابن شكر إلى الوزارة، فلما شعر بأن ابن شكر أساء الأمانة وأحدث حوادث كثيرة وحصَّل مالًا جمًا، عزله وأحاط بجميع موجوده ولم يستوزر بهده أحدًا. بالإضافة لوظيفة الوزير وجدت وظائف سامية في الدولة الأيوبية منها: وظيفة الحاجب: ومهمته إدخال الناس على السلطان، ووظيفة الاستادار: ويفوض إليه النظر غي إدارة البيوت السلطانية، ووظيفة الداودار: ويقوم بإبلاغ الرسائل إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية، ووظيفة الناظر الخاص: وهو المكلف بالشؤون المالية للسلطان.

اعتبرت الدولة الأيوبية أن جميع الأقاليم متساوية في التبعية، وانحصر تعيين ولاتها بين أفراد الأسرة الأيوبية، فأخذ أولاد صلاح الدين الأقاليم المهمة والحساسة مثل مصر ودمشق وحلب، والأقاليم الثانوية كانت من نصيب إخوة صلاح الدين وأولادهم، وقد أطلق على جميع أصحاب الأقاليم لقب الملك أو السلطان دون تفريق بين إقليم وآخر. أما الجهاز الإداري فقد اعتمد على مجموعة من الدواوين على رأس كل منها موظف كبير يسمى ناظرًا أو رئيس، من أهم الدواوين الأيوبية: ديوان الجيش، ديوان الأسطول، ديوان المالية، ديوان الانشاء، ديوان الأحباس. يتبع ديوان الانشاء إدارة البريد التي احتل أصحابها مركزًا مرموقًا في هذا العصر. كان لكل ديوان عدد من الموظفين يتبعون الرئيس وينفذون أوامره، بالإضافة لعدد آخر من الوظائف الإدارية، مثل: والي القاهرة، والي الفسطاط.

## النظام القضائي

فى سنة ٥٦٤ هـ افتتح الناصر صلاح الدين مدرستين لتدريس الفقه، وجعل إحداهما لتدريس الفقه الشافعي، وجعل الأخرى للفقه المالكي، وفصل جميع القضاة الشيعة، وعين بدلًا منهم قضاة من الشافعية السنة، فاقتصر القضاء على مذهب الإمام الشافعي، كما أن قاضي الشافعية صدر الدين درباس لم يُنب عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعيًا، ومن ثم انتشر المذهب الشافعي فى مصر وما يتبعها من أقاليم. كان الذي يتولى منصب القضاء فى القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية في عهد الأيوبيين قاضٍ واحد هو بمثابة قاضي القضاة، وله حق إنابة نواب عنه في بعض الأقاليم. كان للقاضي فى عهد الأيوبيين أعوان يساعدونه على العدل فى الحكم وإعادة الحقوق إلى أصحابها، فكان منهم الجلواز الذي يستعين به القاضي على تنظيم قاعة الجلسة، وحفظ النظام، وترتيب الخصوم وفق ترتيب حضورهم، ومنعهم من التقدم إلى القاضي فى غير دورهم، ومراعاة الآداب في مجلس القضاء، ومنهم الأعوان ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة، والقيام بين يدي القاضي عند نظره فى الخصومات إجلالا لمركزه، ومنهم

الأمناء ومهمتهم حفظ أموال اليتامى والغائبين، ومنهم العدول ومهمتهم مراعاة دقة عبارات السجلات والعقود ومطابقتها للشرع، وتزكية الشهود.

## النظام الاقتصادي

كانت الدولة الأيوبية إحدى الدول القوية ذات الاقتصاد القوي، فقد امتلكت ما تركه الفاطميون عقب سقوط دولتهم، ونظمت الخراج والجزية، بالإضافة إلى غنائم حروبها وفدية الأسرى، واستخدمت هذه الموارد لصالح البلاد الإسلامية كافة، وأنفقت على تسليح الجيش وإعداده جزءًا كبيرًا منها، وبنت القلاع والحصون، وقامت بالإصلاحات الداخلية فى البلاد. غَيَّر الناصر صلاح الدين النظام الاقتصادي الذي كان سائدًا قبله، وقلل من النظام الإقطاعي، فقضى بذلك على استقلال أمراء الإقطاعات، وقوَّى الحكومة المركزية، فكان لهذا أثره الكبير فى ازدهار حالة البلاد الاقتصادية. أولى الأيوبيون الزراعة عنايتهم، فهي عماد حياة البلاد، فطهَّروا الترع، وأقاموا الجسور، ونظموا وسائل الري، لدرجة أن السلطان الكامل كان يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات، وغير ذلك من أعمال الرى الخاصة، فنشطت الزراعة دون أن تؤثر الحروب عليها، فقد كانت حروب الأيوبيين تتوقف فى سوريا شتاءً، وهو موسم الزراعة فى مصر. نشطت التجارة كما ازدهرت الزراعة فى العصر الأيوبى، وأصبحت مصر آنذاك همزة الوصل بين تجارة الشرق والغرب، وعقد السلطان العادل معاهدة تجارية مع البندقية فى سنة ٦٠٥ هـ الموافق ١٢٠٨ م، حصل البنادقة بمقتضاها على تسهيلات تجارية فى الموانى المصرية، خاصة الإسكندرية، فى مقابل أن يمنعوا الصليبيين من التقدم نحو مصر، فلما ولي السلطان الكامل حكم البلاد أقر ما اتفق عليه السلطان العادل مع أهل البندقية، وسمح لهم بتأسيس سوق تجارية فى الإسكندرية، سُمِّيت سوق الأيك، ومنح الامتيازات نفسها لأهل بيزة الذين أرسلوا قنصلا لهم إلى الإسكندرية، فأدت هذه الخطوات إلى ازدهار التجارة وانتعاش الاقتصاد، وزيادة دخل الدولة.

اقتصرت الصناعة في العصر الأيوبي على إنتاج البلاد من المواد الخام، والتي كانت في أغلبها

زراعية، أما عدا ذلك من المواد المستوردة فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدية والحريرية التي كانت تعتمد على الحرير الشامي الخام. يعد النسيج من أهم صناعات مصر في ذلك العصر، حتى أن أنواعًا معينة أحرزت شهرة عالمية مثل قماش الفستان، واحتلت المنسوجات الكتانية مكانة مرموقة بسبب وفرة الكتان، وكانت تنيس تصدر من الأقمشة الكتانية إلى العراق وحدها بثلاثين ألف دينار سنوياً،[١٤٠] يضاف إلى ذلك ازدهار المنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب، كما اشتهرت صناعة الأقمشة الصوفية، أما القطن فكان معروفًا في العصر الأيوبي، لكنه بقي أقل جودة من الصناعة الكتانية، وفي ذلك يقو الثعالبي: «إن القطن لخرسان والكتان لمصر». كانت المصانع النسيجية تنقسم إلى قسمين: مصانع حكومية منتشرة مابين الوجه البحري والوجه القبلي وفي مصر الوسطى، ومصانع خاصة تم توزيعها في الطوابق العليا من العمائر الضخمة التي شيدت على النيل خارج دمياط. ازدهرت في القاهرة صناعة الحفر على الخشب، تتمثل في رائعة قبة الإمام الشافعي، ومحراب ضريخ الملك نجم الدين أيوب، ومن الصناعات التي راجت في العصر الأيوبي صناعة الورق، وكانت أهم مراكزها طبرية ودمشق وطرابلس، كما ازدهرت صناعة الزجاج وبالأخص في حلب ودمشق والفسطاط، أما الخزف فقد أخذت صناعته تضمحل. كما ازدهرت صناعة المعادن والفسيفساء.

مرت مصر بانتكاسة اقتصادية فى عهد العادل نتيجة انخفاض مياه نهر النيل الذي ترتب عليه قلة الزراعة، فحدثت المجاعة واشتد القحط، وبذل العادل جهودًا كبيرة لمواجهة هذه الأزمة، فكان يخرج بنفسه أثناء الليل ويوزع الأموال على الفقراء والمساكين والغرباء، ولكن الموقف ازداد سوءًا وتفاقم خطره حين وقع زلزال مروِّع وقت المجاعة هدم كثيرًا من المبانى، وأزهق أرواحًا لا تُحصَى فى مصر والشام، ولكن الأوضاع سرعان ماعادت إلى طبيعتها بعد زيادة مياه النيل سنة ٦٠١ هـ الموافق ١٢٠٤م، فزادت الغلال وخفت المجاعة، وانتهى أمر النكبة بعد أن تكاتف الجميع للقضاء عليها وإعادة الاقتصاد إلى سابق عهده.

لم يطرأ تغيير كبير على النظام المالي الذي كان سائدًا في مصر منذ العصر العباسي، فبقيت إيرادات الدولة الرئيسية تنقسم إلى قسمين، الخراجي: وهو مايدفعه المزارع من ضريبة سنوية

مفروضة على الأرض التي يقوم بفلاحتها والتي تزرع حبوبًا ونخلًا وعنبًا وفاكهة، وقد أدخل صلاح الدين ما يسمى بالبدل في جميع الخراج، أي أن يؤدي الخراج عينًا فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الحمص بدلًا من القمح. الهلالي: وهو ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصطاد من السمك وكان يعرف الهلالي بالمرافق والمعاون. توسعت الضرائب المستندة من الخراجي والهلالي لتشمل أنواعًا عديدة منها: الأحكار: وهي عبارة عن الأجرة المتحصلة من مساحة الأراضي، وضريبة الغروس: وهي الأماكن التي تقع بالاقطاعات ولا تصل إليها المياه واراد بعض الأفراد استئجارها لقاء مبلغ معلوم، والضريبة على الجهات التي توافر فيها أشجار السنط، فيدفع أهالي تلك المناطق مبلغًا من المال مقابل انتفاعهم بأخشابها، المعادن: فقد تقرر مصادرتها ولا تباع إلا في المتاجر السلطانية بالإسكندرية. من الموارد المالية ضرائب أخرى كالجوالي: وهي ضريبة مفروضة على أهل الذمة، وأموال المواريث، متحصلات ديوان الأوقاف، والضريبة المفروضة على التجار الأجانب القادمين إلى مصر، ضريبة المكوس المفروضة على الحجاج، لكن صلاح الدين رفعها أما سخط الناس.

بالرغم من تعدد إيرادات الدولة وتنوع مواردها إلا أن أبواب المصروفات كانت عديدة مما أدى إلى وقوع البلاد في أزمة مالية، لكن صلاح الدين استطاع تدارك الموقف وأصدر عملة ذهبية كاملة العيار،[١٤٤] لكن هذا الاستقرار المالي لم يدم طويلًا بسبب أعباء الحروب المضنية بين الصليبيين والأيوبيين، فقام صلاح الدين بإصدار عملة نصفها من الفضة ونصفها الآخر من النحاس، مما دفع الناس للاحتفاظ بما لديهم من الذهب، فانحطت عملية البيع والشراء، مما اضطر الملك الكامل إلى إصدار دراهم نحاسية.

## النظام العسكري

### الجيش

أسهمت الحملة الشامية النورية في نشوء الجيش الأيوبي سواءً في عهد وزارة شيركوه وصلاح الدين، وقد تطورت وتوسعت قدرات الجيش إلى حد كبير بعد القضاء على الخلافة

الفاطمية، يقول المقريزي: «في مستهل عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م ومع القضاء على الخلافة الفاطمية جرى عرض عسكري اشترك فيه مختلف صنوف الجيش الصلاحي قديمها وحديثها بأسلحتها وخيولها وعدتها الحربية، وقد دُعي إلى مشاهدة العرض رُسل البيزنطيين والصليبيين»، ويضيف: «في عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١م قام صلاح الدين بالنظر في أمور جيشه لمعرفة الزيادة والنقصان الحاصلة في جنده، واستقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربع في عدد جنده، وستة آلاف وتسعمائة وستة سبعين طواشياً، أما القراغلامية فكان تعدادهم ألفاً وخمسمائة وثلاثة وخمسين»، وبلغت نفقات الجيش السنوي (٣,٦٧٠,٠٠٠) دينار. بدأ صلاح الدين بعد وصوله إلى بلاد الشام بكسب تأييد بقايا الجيش النوري في دمشق، واستطاع أن يخلق منه جيشًا شاميًا تابعًا له يلازمهفي تحركاته، وبهذا صارت لصلاح الدين قوتان: قوة مصرية احتياطية لجيش الشام يستخدمها لدى الحاجة الشديدة إليا وللدفاع عن مصر ضد عدوان خارجي محتمل، وهذه القوة هي امتداد للجيش النوري القادم من الشام تحت قيادة شيركوه، والذي كان قوامه ثمانية آلاف فارس وآلاف أخرى من المشاة، ثم انضمت إليها جماعات حتى تضاعف حجمها، ثم قوة أخرى شامية تحت تصرفه المباشر، وهي التي ترافقه في تحركاته العسكرية، وكان مركزها دمشق، وضمت هذه القوة بالدرجة الأولى قوات جيش نورالدين محمود

شكل صلاح الدين جيشه من المماليك الأسدية القدماء، وسائره من الأحرار الأكراد الذين دخلوا مصر في حملة شيركوه الثالثة، فضلًا عن المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمه وعهد بقيادتهم إلى الأمير أبي الهجاء، صار الصلاحية والأسدية الحرس الخاص لصلاح الدين. تنقسم تشكيلات الجيش الأيوبي إلى ثلاث فئات، الفئة الأولى: تتألف من الترك والأكراد والتركمان، وكانوا يحصلون على رواتبهم كاملة، الفئة الثانية: تتألف من الكنانية والعساقة الذين هاجروا من جنوب فلسطينبعد سقوط عسقلان في يد الصليبيين، وانضم إليهم من ماثلهم من الأجناد القادمين من خارج مصر، وهؤلاء يحصلون على نصف الراتب، الفئة الثالثة: تتألف من الجند الذين يخدمون في الإسطول البحري، ولا يحصلون

إلا على ربع الراتب. يُضاف إلى هذه الفئات الثلاث فرقة من المتطوعين التركمان والأكراد والعرب، وكانوا بمثابة جند غير نظاميين، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور. أنشأ صلاح الدين ديوانًا للجيش، وجعله مسؤلًا عن الشؤون الخاصة بالجيش، فكان هذا الديوان بمثابة وزارة الدفاع في وقتنا الحاضر. اتخذ صلاح الدين عدة خطوات اصلاحية لتدعيم جيشه، أولًا: لجأ إلى تعميم نظام الاقطاع الحربي، أي أنه صار لكل من كبار الأمراء والقادة إقطاع مقابل ما يقدمونه من العساكر، وقد سمي الديوان الذي يشرف على شؤون الجيش بديوان الاقطاع، وهذا يدل على مدى اعتماد التنظيم العسكري الأيوبي على النظام الاقطاعي، ولم يكن هذا الاقطاع وراثيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، إلا أنه كان يحدث أن يورث الأمير اقطاعيته لابنه الأكبر الراشد، وإذا كان ابنه قاصرًا رتب له السلطان معه رجلًا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر، ويكون هذا الرجل بمثابة أتابكًا له، ولم يشمل الإقطاع كافة الامراء بل كان يشمل الذين عرفوا بشجاعتهم ونكايتهم بالعدو. ثانيًا: أرسل أخوه ثوران شاه سنة ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٤م إلى اليمن على رأس جيش كبير كي يقع عبئه على كاهل تلك الديار، ثالثًا: تخلص صلاح الدين بشكل كبير ممن تبقى من جند الفاطميين الذيم دخلوا جيشه، فبعث بهم إلى أقصى بلاد الصعيد. أعاد صلاح الدين تنظيم جيشه عدة مرات، حيث أن الجيش الأيوبي لم يبق على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبي، فبعد انتهاء مرحلة الجهاد ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة، سرح صلاح الدين أكثر من نصف العساكر المصرية، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما وقعت الحملة الصليبية الخامسة. لم يستخد صلاح الدين كل الجيش في حملاته على الشام، لأنه كان مقتنعًا بخطر الصليبيين الداهم لمصر، فاضطر إلى الاستغناء عن نصف الجيش وابقائه داخل البلاد، كانت المرة الوحيدة التي أرسل فيها قسم كبير من جيشه في مصر إلى الشام أثناء حملته على الرملة وما أصابه من هزيمة قاسية.

## البحرية

عند قيام الدولة الأيوبية كان الأسطول المصري في حالة من الضعف والعجز نتيجة ما تعرض له من الهدم والضرب في أواخر العصر الفاطمي جراء هجمات الأساطيل الصليبية المتكررة على سوحل بلاد الشام. أدرك صلاح الدين هذا الانهيار منذ بداية حملته الأولى على مصر وحصار الصليبيين للإسكندرية وما ترتب عليه من تقهقر قواته داخل المدينة. اهتم صلاح الدين بالأسطول البحري فأنشأ له ديوانًا خاصًا للإنفاق عليه باسم ديوان الأسطول، وخصص للديوان موارد هامة منها متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة، فضلًا عن حصيلة النطرون وخراج السنط، تولى ديوان الأسطول الإنفاق على المشتغلين بالأسطول وعلى النفقة على دور الصناعات حيث كانت تصنع السفن في مصر في الفسطاط والإسكندرية ودمياط، كما كان في الإسكندرية ديوان سُمي بالمتجر السلطاني، عمله شراء البضائع المستوردة التي تحتاجها الدولة لأغراض عسكرية، ولا سيما في بناء السفن. في سنة ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧٢م عمل صلاح الدين على تحسين أحوال رجال الأسطول، فرفع أجورهم لتشجيع الناس على الجدمة بالأسطول، ثم لجأ إلى جمع الموارد الازمة ببناء السفن، فاحتكر غابات أشجار السنط، واعتبرها كأنها معادن ليس لأحد فيها ملك واختصاص فهي لبيت المال، لم يكتفي صلاح الدين بالخشب المحلي في مصر، بل استعان بأخشاب الصنوبر التي استوردها من جبال الشام، فضلًا عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من بعض المناطق القريبة من بيروت، كما عقد معاهدات تجارية مع حكومات إيطاليا (البندقية، بيزا، جنوة) حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع.

بفضل هذه الامكانيات أصبح الأسطول الأيوبي قوة كبيرة مزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلًا وتصلح في حالات الهجوم والدفاع، وعشرون طرادة وهي سفن الحركة.

قسم صلاح الدين الأسطول لقسمين، الأول: يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطيء مصر والدفاع عنها، الثاني: يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين

وموانيهم بالشام. أرفق الأيوبيون اهتمامهم بالأسطول بتقوية أجهزة الدفاع والحراسات الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر المعتمدة على طول سواحل مصر والشام، وأصدر صلاح الدين مرسومًا يقول فيه: «إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والموانيء والاهتمام بأمرها».

أما السفن التي استعملت في عصر الدولة الأيوبية فهي: الطريدة: وكانت خاصة بحمل الخيل، وقد امتازت بكبر حجمها بحيث تستطيع أن تحمل أربعين فرسًا، وهي تختلف عن الطرادة التي كانت صغيرة الحجم سريعة الجريان، الشيني: وهي من السفن الكبيرة التي استعملت لحمل المقاتلين، بلغت سعتها حوالي مئة وأربعين مجدافًا، البسطة: وهي ضرب من المراكب الحربية الكبيرة، تتسع لزهاء ٧٠٠ جندي، وقد لعبت هذه السفن دورًا كبيرًا في الحروب مع الصليبيين، الحراقة: استعمل هذا النوع من السفن في النقل، وهي سفينة متوسطة تتسع لحوالي مئة جندي، المسطح: نوع كبير من المراكب ذات طابقين مسقوفين يقاتل الجنود على ظهرها والجدافون يجدفون من تحتها، الحمالة: وهي من السفن الخاصة بحمل المؤونة، البركوس: وهي من السفن الصغيرة، ومهمتها الأساسية نقل المياة، الشلندي: مركب حربي مهمته نقل المقاتلة والأسلحة.

بعد أن أتم صلاح الدين استعداداته الحربية، بدأ الأسطول بعملياته البحرية، فتوغل المسلمون في البحر حتى وصلوا إلى أطراف بيزنطة، وإلى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لآسيا الوسطى، كما قام بعمليات ناجحة ضد الصليبيين بساحل الشام، امتدت حتى جزيرة أرواد، واستولى على سفينتي شحن. قام الأيوبيون عام ٥٧٥ هـ الموافق ١١٧٩م بمهاجمة ميناء عكا واستولوا على عدد من السفن، وظلوا في الميناء يومين كاملين. في المقابل قام الصليبيون بإنزال بحري قرب آيلة، وشرعوا في مهاجمة الموانيء المصرية وخاصة عيذاب، وقامت معركة بحرية بين الطرفين وانتصر فيها قائد الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ. ازدادت فعالية الأسطول البحري بعد معركة حطين، فساعد في الاستيلاء على بعض الموانيء الهامة في بلاد

الشام مثل هكا التي رابطت عندها قوة بحرية اسلامية مؤلفة من عشر سفن لمراقبة المسالك المؤدية لفلسطين.

بعد وفاة صلاح الدين كان موقف خلفائه مناقضًا لنهجه في ادارة الأسطول، فضعف وأُهمل، وأصبحت مصر عاجزة عن مقاومة حملات الصليبيين المتكررة: الحملة الصليبية الخامسة والحملة الصليبية السابعة. أدرك بني أيوب غلطتهم في اهمال الأسطول، وظهر واضحًا في وصية الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران: «فالأسطول أحد جناحي الإسلام فينبغي أن يكونوا شباعًا، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه، جاؤوا من كل فج عميق». يقول المقريزي: فلما مات صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الأسطول قليلًا، ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه.

## العلاقات مع دُول الجوار

### الخلافة العباسية

تراوحت العلاقة الأيوبية مع الخلافة العباسية بين الجيدة والفتور، بدأ صلاح الدين علاقته الجيدة مع العباسيين عندما كان وزيرًا للخليفة العاضد، فقد طلب منه الخليفة العباسي أن يقطع الخطبة للفاطميين ويدعوا للعباسيين على منابر مصر. عندما أراد صلاح الدين توحيد بلاد الشام ومصر تحت مظلته، كتب للخليفة العباسي بين جهوده للتصدي للصليبيين ويبرر سبب ضمه لليمن وضرب المهدي المبتدع، ورجائه من الخليفة أن يقلده سلطنة مصر والمغرب والشام واليمن، وقد استجاب الخليفة العباسي لذلك وأرسل إليه رسل دار الخلافة تحمل التشريفات والتقليد والتملك والتفويض. رغم علاقة الخلافة العباسية الجيدة مع صلاح الدين، إلا أن الخليفة لم يمنحه تقليدًا بولاية الموصل، وكان صلاح الدين وجه رسائل عدة إلى بغداد تطالب بتقليد إمارة الموصل، وكل ما استطاع الحصول عليه هو تقليد بإمارة ديار بكر. لم يؤدي هذا الرفض بخلع صلاح الدين الطاعة العباسيين، واستمر بمراسلتهم، وأطلع الخليفة العباسي على انتصاراته في معركة حطين، وخاطبه بالخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم

والنصر الكريم. في عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٩١ م وصل كتاب الخليفة العباسي إلى صلاح الدين ينكر ما قام به ابن أخيه تقي الدين عمر في شمالي الجزيرة الفراتية من مهاجمة خلاط، وطلب منه إرسال القاضي الفاضل للتباحث بشأن توضيح بعض القضايا، فأجاب صلاح الدين بأنه غير راضي عن تصرفات ابن أخيه، واعتذر عن إرسال القاضي الفاضل إلى بغداد لأنه كان مريضًا، وكانت هذه المراسلة بداية فتور العلاقة بين الأيوبيين والعباسيين.

استمرت علاقة الدولتين بالفتور حتى مقتل توران شاه وسقوط الدولة الأيوبية، حيث سيَّر الناصر يوسف الوريث القوي للأيوبيين في الشام جيشًا إلى مصر لقتال المماليك بقيادة السلطان عز الدين أيبك الذي آلت إليه مراسيم حكم مصر، هُزم الناصر يوسف في معركة العباسة التي دارت بين الطرفين، فاتفق أيبك مع الملك الفرنسي لويس التاسع أن يساعده ضد الناص أيوب مقابل تسليم القدس، عندها تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله بين أيبك والناصر عام ٦٥١ هـ الموافق ١٢٥٣ م بحيث تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة للمماليك، وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين.

## الدولة السلجوقية

كان السلطان عز الدين قلج أرسلان الثاني يرغب في ضم رعبان وكيسوم بهدف التوسع نحو الجنوب، فأرسل رسولًا لصلاح الدين يطالبه بالحصنين بحجة أنهما كانا سابقًا من أملاك سلاجقة الروم ضمهما والده مسعود ثم اضطر أن يتنازل عنهما لنور الدين محمود. رفض صلاح الدين طلب قلج، الذي قام بمهاجمة رعبان عام ٥٧٥ هـ الموافق ١١٧٩ م، لما علم صلاح الدين بالهجوم أرسل قوات نحو المعسكر السلجوقي بقيادة المظفر تقي الدين عمر، انتهت بهزيمة السلاجقة وتثبيت حكم صلاح الدين للحصن.

في السنة التالية نشب نزاع بين قلج وصلاح الدين بسبب مشكلة عائلية مع صاحب كيفا، حيث هاجم قلج حصن كيفا، فقام صاحبه نور الدين محمد بطلب المساعدة من صلاح الدين،

تقابل الجيشان عند نهر كوك سو، لكن الطرفان جنحا للصلح، فتم الاتفاق المهم بمساعدة صلاح الدين للسلاجقة في حربهم ضد الأرمن في كيليكية.

عندما أرسل الغرب الأوروبي حملته الصليبية الثالثة كان الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا أحد المشاركين فيها، وحتى يمهد لحملته أرسل رسائل للملوك والأمراء والسلاطين الذين سوف تجتاز حملته بلادهم، ومنهم السلطان قلج أرسلان الثاني، الذي رد عليه يعده بالمساعدة، في حين قام الإمبراطور البيزنطي بإرسال بعثة إلى ألمانيا تعد باجتياز الحملة الأراضي البيزنطية، وفي الوقت نفسه أدت مخاوفه إلى سعيه لمحالفة صلاح الدين ضد فريدريك وقلج، فتعهد له صلاح الدين بوضع الأماكن المقدسة النصرانية في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس. عندما وصل الإمبراطور فريدريك البلقان أرسل الإمبراطور البيزنطي رسالة لصلاح الدين تعده بعدم تمكينه من عبور بلاده، لكن فريدريك اجتاز الأراضي البيزنطية ووصل داخل هضبة الأناضول السلجوقية، وقام قلج بتزويد الجيش الألماني بالمؤن وحراستها داخل الأراضي السلجوقية حتى وصلت الحملة أرض الشام. لما آلت السلطة السلجوقية لعز الدين كيكاوس في عهد الملك الأيوبي العادل، طمع بالسيطره على حلب، فأرسل جيش تقابل مع الجيش الأيوبي على مشارف حلب، انتهت المعركة بهزيمة السلاجقة، فقام عز الدين بسحب جيشه واسترد الجيش الأيوبي بلدة تل باشر ورعبان وتل خالد وبرج الرصاص التي خسرها قبل معركة حلب.

لما نجح جلال الدين الخوارزمي في إعاد إحياء الدولة الخوارزمية قام بمهاجمة بغداد، ثم تحالف مع بعض الأمراء الأيوبيين على مهاجمة حلب وإقليم الجزيرة، قرر السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول التحالف مع الأيوبيين في مواجهة الخوارزميين، نتج عنها وقوع معركة بين الطرفين في منطقة قريبة من خلاط عام ٦٢٧ هـ الموافق ١٢٣٠م، انتهت بهزيمة الخوارزميين وانسحابهم إلى أذربيجان. لم يستمر التحالف السلجوقي الأيوبي طويلًا، فقام كيقباد الأول بالاستيلاء على خلاط وتوغل في بلاد الأرمن ودخل تفليس، كما قام بضم العساكر الخوارزمية بعد سقوط الدولة الخوارزمية بيد المغول، تحرك الملك الكامل بجيشه

الأيوبي نحو بلاد السلاجقة، ووقعة بين الطرفين حاسمة انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، واستطاع السلاجقة من السيطرة على حصن زياد القريب من نهر الفرات.[١٦٠] في عام ٦٣٣ هـ الموافق ١٢٣٦م قام الملك الكامل بمهاجمة بلاد السلاجقة واستعاد الرها وحران. استمر تمدد السلاجقة في بلاد الأيوبيين حتى توطد حكمهم في إقليم الجزيرة وسيطرتهم على آمد

## الإمبراطورية البيزنطية

انتهت بوفاة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس مرحلة التعاون البيزنطي الصليبي، وبدأت مرحلة التعاون مع الأيوبيين، ففي عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١م أرسل إمبراطور بيزنطة أندرونيكوس الأول كومنينوس مبعوثًا إلى القاهرة لعقد صلح مع صلاح الدين، وكان ذلك قبيل مجيء الحملة الصليبية الثالثة، كان الهدف من الاتفاق هي مقاومة الاتين بشكل عام وسلاجقة الروم بشكل خاص. في عام ٥٨١ هـ الموافق ١١٨٥م أرسل أندرونيكوس سفارة إلى صلاح الدين يعرض عليه قيام تحالف بينهما على: أن يتعاون الطرفان في قتال مملكة بيت المقدس، ويتعاون الطرفان في مناوأة السلاجقة، ويبذل الإمبراطور البيزنطي المساعدة لصلاح الدين في نضاله ضد الصليبيين في بلاد الشام. لكن هذا الاتفاق لم يكتب له النجاح بسبب خلع الإمبراطور البيزنطي قبل أن يصل رد صلاح الدين. تولى الإمبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس السلطة في القسطنطينية وواصل سياسة التقارب مع صلاح الدين، وأقرت بين الطرفين المعاهدة التي بدأها أندرونيكوس. عندما انتصر صلاح الدين في حطين أرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي تخبره بهزيمة الصليبيين في الشام، رد صلاح الدين بسفارة مماثلة جدد فيها المحالفة مع صلاح الدين. عندما بدأت أخبار تجهيز الحملة الصليبية الثالثة في الظهور أرسل صلاح الدين سفارة إلى بيزنطة بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين للتصدي للغزو الصليبي، أرسل فريدريك بربروسا قائد الحملة رسالة إلى بيزنطة تخبرهم بعزمه اجتياز أراضيها وتقديم مايلزم للانتقال لشواطيء الشام، قام إسحاق الثاني بعقد معاهدة بينه وبين فريدريك في أدرنة يتعهد بموجبها بحماية السفن وتأمين المؤن للجيش الصليبي، ثم كتب

لصلاح الدين رسالة يعتذر فيها عن قيامه بالسماح للصليبيين بعبور الأراضي البيزنطية. في عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٩١م أرسل إسحاق الثاني رسالة إلى صلاح الدين يطلب منه أن يجعل له الإشراف على بيت المقدس، وأن يشترك معه في الهجوم على قونية عاصمة السلاجقة، لكن صلاح الدين رفض أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على بيت المقدس. كانت الحملة الصليبية الرابعة تستهدف غزو الأراضي المقدسة عبر مصر وذلك عام ١٢٠٢م، لكن في عام ١٢٠٤م تحول نظر الصليبيين عن مهمتهم في الأرض المقدسة، فحاصروا المدينة الأرثوذكسية الشرقية القسطنطينية، فاحتلوها لستين عامًا.

من نتائج العلاقة الجيدة بين البيزنطيين والأيوبيين أنه في عام ٥٧٧ هـ تم فتح الجامع الإسلامي في القسطنطينية، وإطلاق مئتي أسير مسلم فيها.

## دولة الموحدون

أرسل صلاح الدين قائده بهاء الدين قراقوش لاخضاع المغرب الأدنى تحت الحكم الأيوبي، رأى الموحدون أن اجتياح قراقوش لأفريقيا يشكل تهديدًا خطيرًا لوجودهم، تجسد هذا الخطر من خلال الحلف الذي انعقد بين قراقوش والقبائل العربية في المغرب الأدنى ووقوع العديد من المدن في قبضة القبائل العربية التي أعلنت ولائهم للخلافة العباسية، ودعت للخليفة في المنابر، عندها دارت معارك وصراع طويل بين الموحدين من جهة والقبائل العربية المدعومة من الأيوبيين من جهة أخرى. كان دخول قراقوش لأفريقيا قد أساء إلى العلاقات بين الدولتين، وجعلت من امكانية التعاون بينهما يكاد يكون مستحيلًا. بعد الانتصار الذي حققه صلاح الدين في حطين واستعادته بيت المقدس، أخذت أوروبا في التحضير لحلف صليبي كبير يضم فرنسا وألمانيا وإنجلترا وبيزا وجنوى بالإضافة لأوروبا الشرقية لاستعادة القدس، وبدؤا في تسيير الحملة الصليبية الثالثة، هذا الموقف الخطير دفع بصلاح الدين لمخاطبة الخليفة العباسي للحضور بنفسه أرض الشام لبث الحماس في نفوس الجنود المرابطين فيها، ولما شعر صلاح الدين بأهمية الأساطيل البحرية تطلع نحو المغرب آملًا في اسهام الموحين في الوقوف

بوجه اساطيل أوروبا والحيلول دون وصولهم الشام. قام صلاح الدين بارسال رسالة إلى يعقوب المنصور يطلب منه المساعدة في تخفيف الضغط الصليبي على الشام موضحًا أهمية منع السفن والاساطيل الأوروبية إلى الشام وأن الأمل معقود على الأسطول الموحدي، واقترح على يعقوب أن يعهد إلى واليه في تونس القيام بهذه المهمة، ومما جاء في الرسالة:«وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره والجار أقدر على الجار، ولأنه بحر والنجدة بحرية» لم تسفر سفارة صلاح الدين إلى الموحدين عن أية نتائج، أما عن سبب رفض الخليفة الموحدي لنجدة صلاح الدين فيقول ابن خلكان: «لم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين، فعز ذلك عليه، ولم يجب إلى ما طلب منه».

## الحشاشون

انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر إلى فرقين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالخلافة، وقد فروا إلى الشرق وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية وغلب على اتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية أتباع المستعلي الابن الثاني للمستنصر. حين وصل الحسن بن الصباح إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي، قام اتباع الحسن بن الصباح بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، وتوسعت الحركة الإسماعيلية وامتلكوا عدة حصون هامة في بلاد الشام، مثل: القدموس والعليقة والكهف ومصياف وغيرها.

أرسلت القيادة الإسماعيلية في قلعة الموت إلى سنان شيخ الجبل ليتولى زعامة الإسماعيلية في بلاد الشام، نَقَم الحشاشون على صلاح الدين الأيوبي لأنه أسقط الخلافة العبيدية الفاطمية، ففي عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٤م أرسل رشيد الدين سنان جماعة من أتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي في حلب فاكتشفهم أمير يدعى خمارتكين فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين وحمل عليه أحدهم ليقتله فقتل دونه، واستبسل الباقون في الدفاع عن أنفسهم قبل أن

يُقتلوا جميعًا. قام رشيد الدين عام ٥٧١ هـ الموافق عام ١١٧٦م بإرسال جماعة من أتباعه يتنكرون في زي الجنود، فدخلوا المعسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب مع جند صلاح الدين واختلطوا بهم يتحينون الفرصة لقتل صلاح الدين، فهجم عليه أربعة من الإسماعيلية، لكنهم لم يستطيعوا من قتله.

بعد محاولات الاغتيال الفاشلة أخذ صلاح الدين بالاحتراز الشديد، وجهز حملة عسكرية في شهر محرم عام ٥٧٢ هـ الموافق ١١٧٦م، فحاصر حصونهم ونصب المجانيق الكبار عليها ودمرها حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود تكشى صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم بعد أن دمر قوتهم.

## المظاهر الاجتماعية والثقافية

### الحياة الدينية

عمدت الدولة الأيوبية إلى القضاء على المذهب الشيعي، ومحو أثره وتدعيم ونشر المذهب السني في كافة أنحاء البلاد، وذلك بعد أن بلغ الصراع الديني في الإسلام ذروته في تلك الفترة، كانت السياسة التعليمية التي لجأ إليها الفاطميون لنشر الدعوة لمذهبهم في مصر وما رافقه من تعذيب وتفكيك، قابلها السلاجقة في الشام بتعصبهم للمذهب السني، وأنشأوا المدارس لمكافحة المذهب الشيعي. لم تكد تتم لنور الدين زنكي السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين بمحو الخلافة الفاطمية، وتوحيد البلاد تحت راية الخليفة العباسي السني. أخذ صلاح الدين منذ أن ولي مصر للخليفة الفاطمي العاضد بالعمل على نشر المذهب السني، فأنشأ عددًا من المدارس السنية، وقد تجلت ظاهرة التصوف والإكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخوانق.

اهتم صلاح الدين بجذب العلماء وكذلك جذب الصوفية فأنشأ أول خانقاه للصوفية في مصر وجعلها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ووقف عليهم أوقافًا

جليلة، وولى عليهم شيخًا يدبر أمورهم عرف بشيخ الشيوخ، يذكر تقي الدين المقريزي: «أن سكانها من الصوفية كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة، وقد رتب لهم السلطان الخبز والحلوى في كل يوم، وأربعين درهماً في العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر، أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته». وقال الرحالة ابن جبير: «وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأن قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خاطرها لعبادته من الفكر في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تذكرهم بالجنان». كانت لسياسة صلاح الدين وخلفائه مع المتصوفين الأثر الكبير في تشجيع كثرة الزوايا والربط اللتين اجتذبتا حولها الأتباع والمريدين، في المقابل كان لكثرة الإقبال على التصوف في العصر الأيوبي بعد ازدياد عدد الوافدين على مصر من زعماء المتصوفة ومشايخهم وبخاصة من المغرب العربي الذين أشاعوا حياة الزهد والتقشف، قد ترك أثرًا خطيرًا في المجتمع المصري نتيجة زيادة العاطلين عن العمل، والذي انعكس سلبًا على الحياة الاقتصادية في الدولة الأيوبية.

عانى بعض المسيحيين في بلاد المسلمين أشد المعاناه من الصليبيين الغزاه، فعندما احتل الصليبيون مدينة أنطاكية، طردوا الأروام من كنائسهم الكبرى، وطردوا أساقفهم، ثم عينوا بطريركًا وعدة أساقفة، وقام اللاتين المنتصرين بالاستيلاء على أديرة الأرمن والروم والسوريين والجورجيين، كما عاملوا المسيحيين الأرثوذكس معاملة قاسية إذ استولوا على كنائسهم وحولوها إلى كنائس لاتينية، على الرغم من مشاركة الأرمن والسوريان والموارنة في مساعدة الصليبيين. لما احتل الصليبيون القدس منعوا النصارى المصريين من الحج إليها بدعوى أنهم ملحدون، وكتب أحد المؤرخين الأقباط يشكو من هذه المعاملة: «لم يكن حزن اليعاقبة بأقل من المسلمين، بأي حق يمنع النصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الاقتراب من المدينة، إن الصليبيين يكرهوننا، كما لو كنا ضللنا عن الإيمان القويم».

افتتح صلاح الدين عهده في الوزارة بطرد الموظفين الأقباط من مناصبهم، ولكنه سرعان ما أعادهم إليها مرة أخرى، ومن المحتمل أن يكون إخراجه للذميين من وظائفهم هو بمثابة حركة تطهير أجريت ضد الفاطميين أكثر منها بغضًا من النصارى، كما أنه صار لزامًا عليهم أن

يتزينوا بزي خاص بهم. كانت سياسة صلاح الدين واضحة بالتسامح مع النصارى الشرقيين، ويعود ذلك إلى أن النصارى سهلوا له مهمة الاستيلاء على بيت المقدس، وذلك بإلحاحهم على الصليبيين بأن يسلموا المدينة، لمَّا كان عددهم يفوق عدد الصليبيين تمكنوا من تحقيق رغبتهم. رافق صلاح الدين في حملته لبيت المقدس عدد كبير من الأقباط، ودخلوا معه القدس ككُتاب وكعمال مهرة. بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين منحهم ديرًا ملاصقًا للقبر المقدس بالقدس وهو المعروف باسم دير السلطان، مكافئة لمواقفهم النبيلة معه ضد الصليبيين، كما أعاد الأقباط الى وظائفهم العليا فى الدولة، واسترد آخرون أموالهم وممتلكاتهم التي سلبت منهم أيام سقوط الدولة الفاطمية، اختار صلاح الدين قبطيًا هو صفي الدولة بن أبي المعالي الملقب بابن شرقي ككاتب خاص له. كانت أحوال الأقباط في أيام الدولة الايوبية رغم ما تخللها من صعوبات أفضل من غيرها من الدول، حيث شارك المسيحيون العرب في ادارة الدولة الايوبية، ومن أبرزهم: أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال وزير العدل، والأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل صاحب ديوان الملك الصالح، والطبيب علم الدين أبو النصر جرجس، وأبو الفرج بن ميخائيل رئيس ديوان الملك العادل، وابن المصوف أمين أموال الحكومة في ايام صلاح الدين وغيرهم. أُقيم أول مطران قبطي في القدس سنة ١٢٣٦م، وذلك مع ازدياد الأقباط في القدس وازدياد ممتلكاتهم من كنائس وأديرة، ولكثرة وجود الأقباط في الشام قام البابا كيرلس الثالث برسامة أول مطران قبطي للقدس سنة ١٢٣٦م وأعطاه السلطان الرعاية من فلسطين حتى نواحي الفرات، وقبل هذا كانت مصالح الأقباط ترعاها الكنيسة السريانية في القدس.

أثناء الحملة الصليبية الثالثة ظل اليهود مقيمين في عسقلان وذلك لأنها لم تتعرض للإبادة مثل نظيرتها من المدن، أما القدس فلم يُسمح لليهود خلال هذه الفترة التي أعقبت تأسيس مملكة بيت المقدس إلا بأربع عائلات فقط للسُكنى في المدينة المقدسة. أظهر الملك بلدوين الأول تقاربًا مع اليهود كرعايا، فسمح لهم بدخول المدينة المقدسة، أما بالنسبة لباقي مدن الشام فقد تناقص عدد اليهود بشكل عام خوفًا من المذابح والقتل. عُومل اليهود معاملة

حسنة ومارسوا أثناء الحكم الصليبي لبلاد المسلمين مهنة الصباغة وصناعة الزجاج وامتلك اليهود سفنًا بخارية والتزم اليهود بدفع الضريبة للحكم الصليبي، وقد استفاد اليهود من الأوضاع السائدة في القرن الثاني عشر الميلادي وأصبحت العلاقات بين الجالية اليهودية والنظام الصليبي إيجابية مما سهل عمليات الهجرة اليهودية وتسهيل عمليات الحج، بقيت القدس المدينة الوحيدة المحرمة على اليهود حتى عام ١١٧٨م، عندما دخل صلاح الدين المدينة وسمح لهم بدخولها، واصل خلفاء صلاح الدين نفس السياسة مع اليهود إلى أن سياسة التسامح لم تمنع صلاح الدين من تحويل المعابد اليهودية إلى مساجد على أساس أنها كانت في الأصل مساجد فقام الصليبيون بتدميرها. بقى اليهود في القدس حتى جاء عام ١٢٤٤م حين تم تحرير المدينة المقدسة على يد الخوارزمين والصالح نجم الدين أيوب، حيث تم إعفاؤهم من الضرائب. كان لليهود دور فى مواجهة الحروب الصليبية، حيث تشير الروايات إلى أن السيوف الصليبية لم تفرق بين المسلمين والمسيحيين واليهود العرب فى مجزرة بيت المقدس، فقد كانت النظرة الصليبية الدينية تجاه الفريقين على أساس تكفر المسلميين واليهود باعتبارهم أعداء المسيح.

أقر الأيوبيون للموحدين الدروز بمكانتهم كأمراء حرب على جبل لبنان لمقاومتهم عن المشرق الإسلامي أمام غزو الفرنجة، حيث كان للمقاتلين العرب الدروز وجود ملموس في معركة حطين، فأراد صلاح الدين أن يكافئهم على ذلك مكافأة رمزية، فأوكل لهم خدمة وادارة شؤون مقام النبي شعيب المجاور لسهل حطين الذي جرت عليه المعركة. لم تقتصر مشاركة الدروز في معركة حطين فقط بل شاركوا في العديد من المواجهات الرئيسية والثانوية ضد الصليبيين، وعندما تقدم صلاح الدين لتحرير المدن التي يحتلها الصليبيون على الساحل السوري الممتد آنذاك من الإسكندرونة وأنطاكيا شمالًا إلى ساحل غزة جنوبًا، انضم إليه المقاتلون الدروز بقيادة أميرهم آنذاك جمال الدين التنوخي، فقام صلاح الدين بتعينه حاكمًا على مدينة بيروتوجبل لبنان.

## الحياة العلمية والفكرية.

بالرغم من أن السلاطين الأيوبيين كان همهم الجهاد والكفاح ضد الصليبيين، إلا أنهم اهتموا بالعلم والعلماء، فهذا الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق من شدة رغبته في الأدب وأهله اشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مئة دينار وخلعة. كما أن بهرام شاه فرخشاه صاحب بعلبك كان شاعرًا وأديبًا، والمؤرخ أبو الفداء هو اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة. إلى جانب الملوك والأمراء برزت طبقة من الوزراء والكتاب الذين ساهموا مساهمة فاعلة في الحياة العلمية في ذلك العصر، ومنهم: القاضي الفاضل أبو علي محي الدين اللخمي وزير صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلة في الإنشاء، وكتب عددًا ضخمًا من الرسائل، وعماد الدين الأصفهاني الكاتب والمؤرخ الذي عينه صلاح الدين نائبًا عن القاضي الفاضل، اشتهر بمؤلفاته الأدبية خريدة القصر وخريدة العصر والفتح القسي في الفتح القدس والبرق الشامي، والأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء بني منقذ أصحاب حصن شيرز، الذي ألف كتاب الاعتبار المتضمن لدراسة مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة، وبهاء الدين أبو المحاسن المعروف بابن شداد صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، والأديب ضياء الدين بن الأثير وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين، والمؤرخ عز الدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ، وجمال الدين القفطي صاحب كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، والمؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة المقدسي صاحبكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية وما وقع من الحروب الصليبية، والقاضي شمس الدين ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان، والمؤرخ جمال الدين بن واصل الحموي صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وابن أبي أصيبعة صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وأبي صالح الأرمني وابن عساكر الدمشقي.

شهد العصر الأيوبي ازدهارًا في علم اللغة، ومن أبرز من برعوا في هذا العلم محمد بن بري، وأبو الفتح البلطي، وابن عبد المعطي الزواوي، وابن الحاجب. أما الشعر فقد طغى عليه طابع الجهاد والكفاح، وأصبحت أغلب القصائد الشعرية في جميع أنحاء الشرق العربي تشيد

بالانتصارات وأعمال البطولة، ومن أشهر شعراء العصر الأيوبي الشاعر المصري ابن سيناء صاحب كتاب دار الطرز، وابن شمس الخلافة، وكمال الدين ابن النبيه المصري، والشاعر الصوفي عمر بن الفارض، وجمال الدين يحيى بن مطروح، وبهاء الدين زهير الذي عاش في خدمة الملك الصالح أيوب. أظهر سلاطين بني أيوب عناية كبيرة في اقتناء الكتب شملت المنطق والفلسفة والهندسة والفلك والموسيقى والطب بالإضافة إلى الكتب الدينية، فالملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين صاحب اليمن كان مغرمًا باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبته على آلاف الكتب، والمكتبة التي عني بها السلطان الكامل بالقلعة كانت في الأصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل، ثم عني بها ابنه الأشرف أحمد حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦ هـ الموافق ١٢٢٩م، لتصبح نواة مكتبة كبيرة ضمت ثمانية وستين ألف مجلد.

زادت عدد المدارس زمن الأيوبيين، حتى أصبح بالقاهرة حوالي ثلاثة عشر مدرسة، والواقع أن الأيوبيين لم يبتكروا نظام المدارس، وإنما يعود الفضل في ذلك للسلاجقة الذين استحدثوا هذا النظام لنشر المذهب السني ومكافحة الفكر الشيعي، وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد، وكان نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه أول من أسس مدرسة في بغداد.

يذهب المؤرخون إلى القول أن صلاح الدين إنما قصد إنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعي، وعن كثرة مدارس القاهرة يقول ابن جبير: «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد».

أنشأ الأيوبيون مدرستان بالفيوم وأربع وعشرون مدرسة بالفسطاط والقاهرة، وفي الشام أُنشئ أثناء العصر الأيوبي خمسون مدرسة في دمشق واثنتان وعشرون مدرسة فيحلب، أما المدارس التي أنشئت بالفسطاط (مصر القديمة) والقاهرة في العصر الايوبي فهي كما يلي: المدرسة الناصرية أو الشريفية أو مدرسة زين التجاري: أنشأها صلاح الدين الايوبي في أول المحرم سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١١٧٠م جنوب مسجد عمرو بن العاص، ووقفها على المذهب

الشافعي، وكانت أول مدرسة أنشئت بديار مصر تحت اشراف الدولة، وأول من درس بها الفقيه ابن زين التجار.

المدرسة القمحية: أنشأها صلاح الدين بجوار مسجد عمرو بن العاص أيضًا ووقفها على المذهب المالكي، ووقف عليها ضيعة بالفيوم كانت تدر قمحًا كثيرًا يوزع على طلابها وعلى العالمين بها، ولذلك سميت بالمدرسة القميحة. المدرسة القطبية: أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بالقاهرة، وهو أحد أمراء صلاح الدين ووقفها على المذهب الشافعي. مدرسة ابن الارسوقي: أنشأها التاجر العسقلاني ابن الأرسوقي بالقسطاط. المدرسة السيوفية: أنشأها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ الموافق ١١٧٦ م ووقفها على المذهب الحنفي، وكانت قريبة من سوق الصنارقيين. المدرسة الصلاحية أو مدرسة الخيوشاني: أنشأها صلاح الدين بجوار ضريح الإمام الشافعي، ووقفها على المذهب الشافعي، وأشرف على بنائها الشيخ نجم الدين بن الموفق الخبوشاني ودرس بها. مدرسة المشهد: أنشأها صلاح الدين بجوار المشهد الحسيني. المدرسة التقوية: نسبته إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين، وقد أنشأها بالفسطاط في المكان المقابل لجزيرة الروضة، ووقفها على المذهب الشافعي، وحينما كانت الفيوم اقطاعا لتقي الدين عمر بني بها مدرستين إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية. المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني بالقاهرة ووقفها على مذهبي الشافعية والمالكية، وجعل لها مكتبة ضخمة قوامها حوالي مائة ألف مجلد. المدرسة العادلية: أنشأها الملك العادل ووقفها على المذهب المالكي. المدرسة الأزكشية: أنشأها الأمير أباز كوج أحد أمراء صلاح الدين، ووقفها على المذهب الحنفي. المدرسة الغزنوية: بناها الأمير حسام الدين قايماز مملوك السلطان نجم الدين أيوب، ووقفها على المذهب الحنفي. المدرسة القطبية: أنشأتها السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل ووقفها على مذهبي الشافعية والحنفية. المدرسة الشريفية: أنشأها ابن نصر اسماعيلي بن ثعلب ووقفها على المذهب الشافعي. المدرسة الفائزية: أنشئت سنة ٦١٢ هـ الموافق ١٢١٥م، ووقفت على المذهب الشافعي. المدرسة الصاحبية: أنشأها صفي الدين عبد الله بن شكر، ووقفها على المذهب المالكي وعلم النحو. المدرسة

الكاملية: وكانت تعرف بدار الحديث، أنشأها الملك الكامل. المدرسة الفخرية: أنشئت سنة ٦٢٢ هـ الموافق ١٢٢٥م. المدرسة السيفية. المدرسة العاشورية. المدرسة المسرورية. المدرسة الصيرمية. مدرسة ابن رشيق: ووقفت على المذهب المالكي. المدرسة الصالحية: أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة ٦٤٠ هـ الموافق ١٢٤٣م بخط ما بين القصرين قريبًا من الصاغة، ووقفها على المذاهب الأربعة، وهو أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة في مكان واحد، ودخل في هذه المدرسة باب القصر الشرقي الكبير المعروف بباب الزهوتة. بلغت جملة المدارس المعروفة بمصر القديمة والقاهرة في العصر الأيوبي أربعًا وعشرين مدرسة منها: ست مدارس خصصت للمذهب الشافعي، وثلاث مدارس خصصت للمذهب الحنفي، وثلاث مدارس خصصت للمذهب المالكي، ومدرسة واحدة خصصت للمذهبين الشافعي والمالكي معًا، ومدرسة واحدة خصصت للمذهبين الشافعي والحنفي معًا، ومدرسة واحدة خصصت للمذهب المالكي وعلم النحو، ومدرسة واحدة خصصت للمذاهب الأربعة، ومدرسة واحدة خصصت للحديث، سبع مدارس لم تحدد مذاهب الدراسة بها.

من المظاهر الهامة ما لوحظ بمصر من قلة المدارس الحنبلية وكثرة المدارس التي يجري بها تدريس المذاهب الثلاثة عكس ما كان جاريًا في دمشق.

كانت المدارس في العصر الأيوبي أشبه ماتكون بجامعات، فبعد أن كانت تدرس فيها العلوم الدينية، أصبحت مع الأيام تدرس العلوم اللغوية التي اشتملت على النحو واللغة والبيان والأدب، بالإضافة للفلسفة والعلوم الطبيعية. لم يكن يعين بالمدرسة أول الأمر إلا مدرس واحد يختار من مشايخ علماء عصره، ثم صار يعين أكثر من مدرس في المدارس الكبيرة، ففي المدرسة المالكية بالقاهرة والتي كانت تعرف بالقمحية، عين صلاح الدين أربعة مدرسين وجعل كلًا منهم يقوم بالتدريس لعشرين طالبًا. يساعد المدرس عادة معيد، وهو أقل مرتبة من المدرس، وأعظم درجة من عامة الطلبة، وظيفته إعادة الدرس الذي ألقاه عليه المدرس، وقلَّ أن خلت مدرسة من معيد في جميع مدارس العصر الأيوبي، وذكر السيوطي أن المدرسة الصالحية خلت من مدرس مدة ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين. أما طريقة

التدريس فاعتمدت عادة على الإلقاء والتلقين، وباللإضافة للمدارس ذات التعليم العالي، وجدت في العصر الأيوبي كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهمالقران الكريم، يقول ابن جبير: «من مآثر صلاح الدين ما أمر ببنائه من الكتاتيب لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وأجرى عليهم الجراية الكافية لهم». يقول المقريزي: «إن المدرس في المدرسة الصلاحية كان يتقاضى أربعين دينارًا في الشهر، ثم اضطربت الأمور فصار المدرس لا يتقاضى إلا ربع المعلوم».

## الحياة الاجتماعية

لم تعرف الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي حياة البذخ والترف على غرار ما كان في العصر الفاطمي. تميز صلاح الدين بالبعد عن التلهي والشغف بالحياة، ومما يُروى عن صلاح الدين أنه عندما ولى ابنه الظاهر حلب، عمل وتلهى وشُغف بالمُلك وأحبه، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه حسن الخدمة، فعزله عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل، كما طلب منه الملك العادل أن يكتب له اقطاع حلب كتابًا ككتاب البيع والشراء، فامتنع صلاح الدين وقال له: «أظننت أن البلاد تباع، أوما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزنة المسلمين ومراعاة للدين وحراس لأموالهم».

تذكر المصادر أن صلاح الدين كان كريمًا ينفق كل ما في يده في جوه الخير، وقد بلغ من فرط كرمه وزهده أنه لم يكن لديه مال يتزكى به، ولما توفي لم يترك وراءه لا دار ولا مزرعة، قال ابن شداد كاتب سيرته: «لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ودينارا واحدا، ولم يخلف ملكا لا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة».

اهتم الأيوبيون في إحياء الأعياد الدينية، مثل عيد الفطر وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبي محمد، وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه، ولكن من غير اسراف، وبدون تهتك ومع مراعاة للجانب الاقتصادي. يُحدِّثالمقريزي أن بعض خلفاء صلاح الدين أسرفوا أحيانًا في مد الأسمطة وإحياء بعض الحفلات، ومن ذلك ما اشتهر به

العزيز عثمان من إقامة الأسمطة الكبرى لأعيان دولته بين حين وآخر، كما أن السلطان الكامل أقام سمطًا بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير وانفق في سبيل ذلك أموالًا باهضة، كما أقام السلطان العادل الصغير سمطًا في الميدان الأسود تحت القلعة، ذبح فيه ألف رأس من الغنم، فضلًا عن البقر والجاموس والإبل، في المقابل قام صلاح الدين في بدايات حكمه لمصر بإلغاء الاحتفال بيوم عاشوراء.

مثَّل العصر الأيوبي اهتمامًا بالغًا بالعمران والبناء، فقد أنشأ صلاح الدين في سلطنته الكثير من الكليات والمستشفيات والمدارس المجانية، ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المعاهد والمرافق، ويبني الجسور والترع. يصف القلقشندي المجتمع المصري في العصر الأيوبي بقوله: «وزخرت القاهرة بالدور الضخمة، والمباني الرهيبة والأسواق الممتدة والخوانق الفاخرة، وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت، مفروشة الأرض بالرخام... ولأهلها الميل إلى تعلية المساكن، فارتفعت بعض الدور طبقتين وأربع طبقات، وفي كل طبقة مساكن كاملة بمبانيها ومرافقها». ولم يقتصر هذا الاهتمام العمراني على القاهرة دون سواها، فقد ذكر ابن جبير في وصفه بعض مدن الصعيد: «إنها كانت ممتازة حسنًا ونظافة وبنيانًا وصفًا».

فرض الجهاد وسائل معينة للتسلسة في المجتمع الأيوبي وخاصةً المجتمع الشامي مثل الخروج للصيد، إذ كان الأيوبيون يهتمون بصيد الحيوانات وفق ترتيب كأنه ترتيب الحرب، ومارسوا رياضة الرمي بالبندق التي انتقلت إليهم من الغراق، كما مارسوا لعبة الكرة والصولجان التي مارسها السلطان صلاح الدين بشغف، على الرغم من أن الفقهاء لم ينظروا إليها بارتياح، كما حظيت رياضة الفروسية باهتمام الملوك والسلاطين.

## العمارة والآثار

ازدهر في العصر الأيوبي عنصران من عناصر العمارة الإسلامية، الأول: المدارس التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، الثاني: تطور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين. أمر صلاح الدين سنة

١١٦٧م ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط)، وبتشييد قلعة الجبل وجعل الأشراف على هذا البناء للأمير بهاء الدين قراقوش، وجلبت مواد البناء من بعض أهرام الجيزة وساعد في العمل ألوف من أسرى الفرنج، وقد أضيف إلى القلعة بعد صلاح الدين أجزاء كثيرة كما حدث فيها تعديل غير بعض معالمها الأولى. من العمائر التي ترجع إلى العصر الأيوبي قبة الأمام الشافعي التي أنشأها سنة ١٢١١م الملك الكامل محمد، كذلك المدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٢م ولم يبق منها الآن إلا جزء صغير، كذلك الإيوان المعروف بإيوان الثعالبة، وتعتبر قبة شجرة الدر كذلك من الآثار الأيوبية، يقول ابن جبير الذي زار مصر ٥٧٨ هـ: «المسخرون في بناء هذا السور والمتولون لجميع اهتماماته ومسئوليته العظيمة كنشر الرخام، ونحت الصخور وحفر الخندق المحدق بالسور، هم الأسرى من الروم (الصليبيين) وعددهم لا يحص كثرة». زخرت القاهرة بالدور الضخمة والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والخوانق الفاخرة، وغالب مبانيها بالأجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت مفروشة الأرض بالرخام، وغالب سقوفها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة وكلها أو أكثرها جرى تبيض جدرانها بالكلس الناصع البياض، ولميل أهلها إلى تعلية المساكن، ارتفعت بعض الدور إلى طبقتين وأربع طبقات، وفي كل طبقة مساكن كاملة بمبانيها ومرافقها، ويصف البغدادي الذي زار القاهرة زمن الدولة الأيوبية ما جرى من نشاط في البناء والعمارة فيصف مظاهر الاهتمام ببناء المراحيض بالدور وأحكام قنواتها، حتى إذا تخربت الدار ظلت القناة قائمة، وحرص أرباب الدور على أن يمعنوا في حفر المرحاض حتى يصل إلى الماء الجوفي فلا يحتاج إلى الكسح، ويذكر عن الحمامات بالقاهرة أنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد أتقن منها صنعا ولا أحكاما ولا أحسن منظراً.

تركزت حركة العمارة بفلسطين في العهد الأيوبي بالقدس الشريف والخليل، وعليه فإن العمارة الأيوبية قليلة جدًا في المناطق والمدن الساحلية من فلسطين، واقتصر عملهم في تلك المناطق الداخلية والساحلية على تحويل العمائر القائمة إلى مساجد أو بيمارستان وغيرها. لكن

هذا لم يمنع أحيانًا من إقامة رباطات عسكرية في المناطق الساحلية مثل رباطات: غزة وميماس وعسقلان وأسدود ويافا، ففي هذا العصر تركز الاهتمام على الإنفاق على القضايا العسكرية التي تخدم المعركة. بُنيت عمائر هذا العصر وفق مخطط مربع غير منتظم تتوسطها فسحة سماوية طولانية تحيط بها الغرف من ثلاثة أو أربعة جهات، وجعلت في طابقين وأقيم درج في إحدى زوايا هذه الفسحة السماوية، كانت الأساسات والجدران غالبا من الحجر، وتتصل بعضها ببعض بواسطة ملاط مؤلف من الكلس والرمل، وكانت الجدران تورق وتطلى بطلاء أبيض. كانت البيوت الأيوبية خالية من الزخارف، ويمكن القول إن العمارة في هذا العصر تشترك مع عمارة سائر بلاد الشام في أنها تحمل الطابع الإسلامي وهي متعددة الأغراض فلم تقتصر على بناء المساجد التي تُرى شواهدها في القدس والرملة والخليل، بل تعدتها إلى كثير من المباني كالمدارس والبيمارستانات وغيرها، ومن أهم شواهد هذه العمارة: جامع النبي يونس في بلدة حلحول الذي بناه الملك العظيم عيسى بن الملك العادل الأيوبي، وتجديد جامع الخليل (الحرم الإبراهيمي الشريف)، وتجديد عمارة الجامع الأبيض، وقيام صلاح الدين الأيوبي ببناء جامع نابلس الكبير.

شهدت الشام في العهد الأيوبي حركة عمرانية نشطة، تجلَّت في توسيع المدن وتجديد أسوارها، وتشييد العديد من الحصون والقلاع، وتزويد الطرق العامة بالخانات كمحطات للقوافل، وامتلأت المدن بالمباني العامة كالمساجد والمدارس والخانقاهات والبيمارستانات والحمامات والقيساريات والخانات والترب الفخمة المزودة بالقباب. كان يغلب على المباني الأيوبية طابع البساطة والتقشف من حيث الزخرفة بسبب حالة الحرب، ولكنها تميزت بالمتانة والقوة وإتقان التصميم والاعتماد على مادة الحجر، وإتقان نحته واستخدامه بمقاييس كبيرة، كذلك حدث تطور ملحوظ على العمارة العسكرية، حيث فاقت الأبراج والأسوار بحجمها وارتفاعها ومتانتها كل ما هو معروف من قبل ومن بعد، نجد ذلك في قلعتي حلب ودمشق بشكل خاص. تأصلت في تصاميم المباني العناصر التي شاعت في العهد السلجوقي، وامتزجت بالعناصر المحلية التراثية، فأصبحت فناءاتُها المزودة ببركة مستطيلة أو مضلعة، محاطةً بالأواوين

في عدد من الجهات، وتشترك الأروقة معها أحيانًا، كما في مدرستي الفردوسوالطرنطائية في حلب. رغم طابع التقشف، فقد ارتقت فنون النقش على الخشب والجص، وتخلَّف عنها نماذجُ رائعة، كمحراب المدرسة الحلوية الخشبي في حلب، وكمنبر جامع الحنابلة في دمشق، وكاللوحات الجصية التي تشاهد في العديد من مباني دمشق الأيوبية، وفي قمة الإنجاز الزخرفي محراب مدرسة الفردوس في حلب المصنوع من الرخام الملون المتشابك الأشكال، الذي يعتبر من أندر محاريب العالم الإسلامي.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

# أهم خلفاء الدولة الأيوبية

## صلاح الدين الأيوبي

الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ/ ١١٣٨ ـ ١١٩٣ م)، المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت ٢٦٢ سنة.

قاد صلاح الدين عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين.

كان صلاح الدين يقول بمذهب أهل السنة والجماعة، وروي أن عبد القادر الجيلاني دعا له عندما رآه بالبركة فيه، خلال «زيارة خفية» لنجم الدين أيوب وأسرته بغداد سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م، وهذا يفسر أتباعه الطريقة القادرية فيما بعد وبعض العلماء كالمقريزي، وبعض المؤرخين المتأخرين قالوا: إنه كان أشعريًا، وإنه كان يصحب علماء الصوفيةالأشاعرة لأخذ الرأي والمشورة، وأظهر العقيدة الأشعرية.[٨] يشتهر صلاح الدين بتسامحه ومعاملته الإنسانية لأعدائه، لذا فهو من أكثر الأشخاص تقديرًا واحترامًا في العالمين الشرقي الإسلامي

والأوروبي المسيحي، حيث كتب المؤرخون الصليبيون عن بسالته في عدد من المواقف، أبرزها عند حصاره لقلعة الكرك في مؤاب، وكنتيجة لهذا حظي صلاح الدين باحترام خصومه لا سيما ملك إنگلترا ريتشارد الأول «قلب الأسد»، وبدلاً من أن يتحول لشخص مكروه في أوروبا الغربية، استحال رمزًا من رموز الفروسية والشجاعة، وورد ذكره في عدد من القصص والأشعار الإنگليزية والفرنسية العائدة لتلك الحقبة.

ولد صلاح الدين في تكريت في العراق عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م في ليلة مغادرة والده نجم الدين أيوب قلعة تكريت حينما كان واليًا عليها، ويرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين في أرمينيا، وقد أختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانية، ويذكر أحمد بن خلكان ما نصه: «قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين، إن على باب دوين قرية يُقال لها «أجدانقان» وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شاذي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد»، بينما يرفض بعض ملوك الأيوبيين هذا النسب وقالوا: «إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم».» الأيوبيون نفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل الأيوبي صاحب اليمن أرجع نسب بني أيوب إلى بني أمية وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال: «كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلاً»، أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني مرة بن عوف من بطون غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود.

وقد شرح الحسن بن داود الأيوبي في كتابه «الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية» ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادًا، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم. وقال: «ولم أرَ أحداً ممن أدركتُه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب».

كما أن الحسن بن داود قد رجَّح في كتابه صحة شجرة النسب التي وضعها الحسن بن

غريب، والتي فيها نسبة العائلة إلى أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي محمد بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هُدْبة بن الحُصَين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مُرَّة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نَشبَة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش.

وكان نجم الدين والد صلاح الدين قد انتقل إلى بعلبك حيث أصبح واليًا عليها مدة سبع سنوات وانتقل إلى دمشق، وقضى صلاح الدين طفولته في دمشق حيث أمضى فترة شبابه في بلاط الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أمير دمشق.

إن المصادر حول حياة صلاح الدين خلال هذه الفترة قليلة ومبعثرة، لكن من المعروف أنه عشق دمشق عشقًا شديدًا، وتلقى علومه فيها، وبرع في دراساته، حتى قال عنه بعض معاصريه أنه كان عالمًا بالهندسة الإقليدية والرياضيات المجسطية وعلوم الحساب والشريعة الإسلامية، وتنص بعض المصادر أن صلاح الدين كان أكثر شغفًا بالعلوم الدينية والفقه الإسلامي من العلوم العسكرية خلال أيام دراسته. وبالإضافة إلى ذلك، كان صلاح الدين ملمًا بعلم الأنساب والسير الذاتية وتاريخ العرب والشعر، فحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام عن ظهر قلب، أيضًا أحب الخيول العربية المطهمة، وعرف أنقى سلالاتها دمًا.

## بدايته

كانت الدولة العباسية قد تجزأت إلى عدّة دويلات بحلول الوقت الذي ظهر فيه صلاح الدين، في أواسط القرن الثاني عشر، فكان الفاطميون يحكمون مصر ويدعون لخلفائهم على منابر المساجد ولا يعترفون بخلافة بغداد، وكان الصليبيون يحتلون الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط من آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة سيناء، والأتابكة يسيطرون على شمال العراق وسوريا الداخلية.

لمع نجم صلاح الدين في سماء المعارك والقيادة العسكرية عندما أقبل الوزير الفاطمي

شاور بن مجير السعدي إلى الشام فارًا من مصر، وهربًا من الوزير ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي الملقب فارس المسلمين لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة وقتل ولده الأكبر طيء بن شاور، مستغيثًا بالملك نور الدين زنكي في دمشق وذلك في شهر رمضان سنة ٥٥٨ هـ ودخل دمشق في ٢٣ من ذي القعدة من السنة نفسها، فوجه نور الدين معه أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره كان صلاح الدين، ابن الستة والعشرين ربيعًا، في جملتهم في خدمة عمه وخدمة جيش الشام وهو كاره للسفر معهم، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش هدفان؛ قضاء حق شاور لكونه قصده، وأنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك.

وكان نور الدين كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فانتدبه لذلك، وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وشاور معهم فخرجوا من دمشق على رأس الجيش في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ ودخلوا مصر وسيطروا عليها واستولوا على الأمر في رجب من السنة نفسها، ومن المعروف أن صلاح الدين لم يلعب دورًا كبيرًا خلال هذه الحملة الأولى، بل اقتصر دوره على مهمات ثانوية.

ولمّا وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الوزير ضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره، غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنجة عليه فحاصروه في بلبيس ثلاثة أشهر، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها، ولكن تحت ضغط من هجمات مملكة القدس الصليبية والحملات المتتالية على مصر بالإضافة إلى قلة عدد الجنود الشامية أجبر على الانسحاب من البلاد. وبلغ إلى علم نور الدين في دمشق وكذلك أسد الدين مكاتبة الوزير شاور للفرنجة وما تقرر بينهم فخافا على مصر أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد هناك فتجهز أسد الدين في قيادة الجيش وخرج من دمشق وأنفذ معه نور الدين العساكر وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنًا لوصول الفرنجة إليها، فاتفقوا مع الفاطميين عليه،

فاشتبكوا في أوّل معركة كبيرة في صحراء الجيزة، وفي تلك المعركة لعب صلاح الدين دورًا كبيرًا، حيث كان جيش المصريين والفرنجة يفوق جيش الشام عددًا، فرأى شيركوه أن يجعل صلاح الدين على القلب لاعتقاده بأن الفرنجة سيحملون على القلب ظنًا منهم أن شيركوه سيكون في القلب، وتولّى شيركوه قيادة الميمنة مع شجعان من جيشه، وسُلّمت قيادة الميسرة إلى جمع من القادة الكرد. عند بداية المعركة، حمل الصليبيون على القلب، الذين تقهقروا بانتظام أمام هذا الهجوم، ليطوّقهم بعد ذلك شيركوه وجنوده في صورة من صور تكتيك الكماشة. يرى بعض المؤرخين الغربيين أن وعورة الأرض وكثافة الرمال وثقل الجياد الأوروبية والجنود الفرنجة المدرعين، أسهمت في جعل الآية تنقلب عليهم، فهزمهم جيش الشام، واستطاع صلاح الدين أسر أحد قادة الجيش الصليبي عندما هاجم جناحه، وهو صاحب قيسارية.

بعد هذا الانتصار، توجه أسد الدين إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بكرهها لشاور، وفتحت له أبوابها. سرعان ما أعادعموري الأول ملك بيت المقدس، وشاور ترتيب الجيش، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي لحقت بهما فكان لا يزال جيشهما أكثر عددًا من جيش أسد الدين، وضربوا حصارًا قاسيًا على الإسكندرية. بدأت ملامح المجاعة تلوح في الأفق فقرر أسد الدين التسلل مع حامية إلى خارج الإسكندرية واستخلف صلاح الدين عليها، متوجهًا إلى مصر العليا أملاً بأن تلحق به جيوش عموري إلا أن شاور أشار بأهمية الإسكندرية، ليستمر الحصار عليها. ترى المصادر الصليبية أن أسد الدين تسلل من الإسكندرية لما ساءت الأمور فيها، وأنه أرسل في التفاوض على أن يخرج كلا الجيشين من مصر، وعلى ألا يعاقب أهالي الإسكندرية للدعم الذي قدموه.

كان من أهم أسباب موافقة عموري على هذه الصفقة إغارة نور الدين زنكي على إمارة طرابلس، مما أدى إلى خوف عموري الأول على أراضيه في الشام. في حين ترى المصادر العربية أن أسد الدين افترق عن صلاح الدين مباشرة بعد الدخول إلى الإسكندرية، وراح يغير على صعيد مصر. حين اشتد الحصار على الإسكندرية تحرك نحوها، فلقفه الصليبيون في الصلح

ووافق على ذلك على أن يخرج جيشا الفرنجة والشام من مصر. ليخرج جيش الشام من مصر في ٢٩ شوال سنة ٥٦٢ هـ الموافق فيه ١٨ أغسطس سنة ١١٦٧م.

عاد أسد الدين من دمشق إلى مصر مرة ثالثة، وكان سبب ذلك أن الإفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون مصر نظرًا لتخلف شاور عن دفع الإتاوة إلى الحامية الصليبية الموجودة في مصر، إضافة إلى وجود شائعات تفيد بأن الكامل بن شاور تقدم للزواج من أخت صلاح الدين. فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين في الشام لم يسعهما الصبر فسارعا إلى مصر، أما نور الدين فبالمال والجيش ولم يمكنه المسير بنفسه للتصدي لأي محاولة من قبل الإفرنج، وأما أسد الدين فبنفسه وماله وإخوته وأهله ورجاله، وسار الجيش. وكان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر، سيّر إلى أسد الدين في دمشق يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعًا وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ، ولما علم الملكعموري الأول بوصول أسد الدين على رأس الجيش من دمشق إلى مصر قرر مباغتته عند السويس، لكن أسد الدين أدرك ذلك فاتجه نحو الجنوب متجاوزًا الصليبيين. فما كان من عموري إلا الجلاء عن أرض مصر في ٢ يناير سنة ١١٦٩م، ليدخل أسد الدين القاهرة في ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ الموافق فيه ٨ يناير سنة ١١٦٩م، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابل ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا، وعلم أسد الدين أن شاور يلعب به تارة وبالإفرنج أخرى، وتحقق أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وفي ١٧ ربيع الآخر، الموافق فيه ١٨ يناير، ألقي القبض على شاور وأصدر الخليفة الفاطمي، العاضد لدين الله، أمرًا بقتله وعيّن أسد الدين كوزير.

## تأسيس الدولة في مصر

## تولّي الوزارة وإسقاط الدولة الفاطمية

كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقر الدولة الفاطمية، ولم يكن للخليفة الفاطمي بحلول ذلك الوقت سوى الدعاء على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكان وزير الدولة هو صاحب الأمر والنهي، لذا أصبح أسد الدين شيركوه هو الرجل الأول في البلاد، ودام على هذا الحال وصلاح الدين يُباشر الأمور مقررًا لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته طيلة شهرين من الزمن،[٣٤] عندما توفي أسد الدين، أسند الخليفة الفاطمي الوزارة لصلاح الدين.

يذكر المؤرخون، وفي مقدمتهم عماد الدين الأصفهاني، أنه بعد وفاة شيركوه وانقضاء مدة الحداد، طالب الزنكيون، أمراء دمشق، طالبوا الخليفة الفاطمي بل ضغطوا عليه حتى يجعل صلاح الدين وزيرًا له، وقد قبل الخليفة ذلك على الرغم من المنافسة الحادة التي كانت الدويلات الإسلامية تشهدها في تلك الفترة من الزمن، للسيطرة على الأراضي العربية، لشدة ضعف الدولة الفاطمية وقوّة الزنكيين وشعبيتهم، وشعبية صلاح الدين نفسه بين الناس وأمراء الشام، بعد ما أظهره من حسن القيادة والتدبير في المعارك.

على الرغم من هذا التأييد، لم يمرّ تولّي صلاح الدين وزارة مصر بسلام، فقد تعرّض بعد بضعة أشهر من توليه لمحاولة اغتيال من قبل بعض الجنود والأمراء الفاطميين، وتبيّن أن المحرّض الرئيسي على هذا كان مؤتمن الخليفة الفاطمي وكان خصيًا بقصر العاضد لدين الله، وكان هذا الخصي يتطلع إلى الحكم فيه والتقدم على من يحويه فقُبض عليه وأُعدم، فحاك أرباب المصالح مؤامرة أخرى، حيث ملأوا صدور ٥٠٫٠٠٠ جندي من فوج الزنوج بالحقد والكره، وثاروا حميّةً على الوزير الجديد في القاهرة، لكنه استطاع أن يقمعهم ويكسر شوكتهم، وكانت تلك آخر انتفاضة ضد صلاح الدين تقع في المدينة.

بعد سقوط مصر في أيدي الزنكيين، أرسل الملك عموري رسله لإرسال حملة صليبية

جديدة شارحًا خطورة الأمر والتغير في ميزان القوى في المنطقة، فاستجاب البابا إسكندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، لكنها لم تجد أذنًا صاغية.

في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس اختلال توازن القوى في المنطقة. فعرض تعاون الأسطول الإمبراطوري مع حملة عموري الأول، الذي وجد الفرصة مناسبة بسبب انشغال الملك نور الدين زنكي في مشاكله الداخلية، إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين خلفًا له والذي كان الملك عموري يراه شخصًا غير محنك.

استعد صلاح الدين بشكل جيد، فقد استطاع التخلص من حرس قصر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله واستبداله بحرس موالين له. وكان ذلك لتأخر الحملة الصليبية ثلاث أشهر منذ انطلاقها في ١٣ شوال سنة ٥٦٤ هـ الموافق فيه ١٠ يوليوسنة ١١٦٩م، بسبب عدم حماسة الأمراء والبارونات الصليبيين للمعركة بعد المعارك الأخيرة التي هُزموا فيها، استهل الصليبيون حملتهم بحصار مدينة دمياط في ١ صفر سنة ٥٦٥ هـ الموافق فيه ٢٥ أكتوبر سنة ١١٦٩م، فأرسل صلاح الدين قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين زنكي يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: «إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية»، وقال نور الدين في ذلك: «إني لأستحي من الله أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنج».

فسار نور الدين إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر. وقامت حامية دمياط بدور أساسي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول سفن الروم إليها، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيؤا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يومًا، بعد أن أحرقوا جميع أدوات الحصار. وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة

عنيفة، لم يتمكن البحارة ـ الذين كادوا أن يهلكوا جوعًا ـ من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم.

لاحق صلاح الدين وجيشه فلول الجيش الصليبي المنسحب شمالاً حتى اشتبك معهم في مدينة دير البلح سنة ١١٧٠م، فخرج الملك عموري الأول وحاميته من فرسان الهيكل من مدينة غزة لقتال صلاح الدين، لكن الأخير استطاع تفادي الجيش الصليبي وحوّل مسيرته إلى غزة نفسها حيث دمّر البلدة التي بناها الصليبيون خارج أسوار المدينة. تفيد بعض الوثائق أنه خلال هذه الفترة، قام صلاح الدين بفتح قلعة إيلات التي بناها الصليبيون على جزيرة صغيرة في خليج العقبة في ١٠ ربيع الآخر ٥٦٦ هـ، على الرغم من أنها لم تمثل تهديدًا للبحرية الإسلامية، إلا أن فرسانها كانوا يتعرضون في بعض الأحيان للسفن والقوارب التجارية الصغيرة.

بعد هذا الانتصار، ثبّت الزنكيون أقدامهم في مصر، وأصبح من الواضح أن الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين طالبًا إياه بإيقاف الدعاء إلى الخليفة الفاطمي والدعاء إلى الخليفة العباسي في مساجد مصر. لم يرغب صلاح الدين من الامتثال لهذا الأمر خوفًا من النفوذ الشيعي في مصر، وأخذ يراوغ في تأخير الأمر، إلا أن نور الدين هدد صلاح الدين بالحضور شخصيًا إلى القاهرة. فاتخذ صلاح الدين الإجراءات الشرطية اللازمة، لكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك، إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائر وقام في المسجد الأزهر وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله في أول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ الموافق في شهر سبتمبر من سنة ١١٧١م، لتحذو القاهرة كلها حذوه، في الوقت الذي كان فيه العاضد لدين الله على فراش الموت مريضًا، ولم يلبث العاضد طويلاً حتى فارق الحياة، فأصبح صلاح الدين الحاكم الفعلي في مصر، ليس لأحدٍ فيها كلمة سواه، ونقل أسرته ووالده نجم الدين إليها ليكونوا له أعوانًا مخلصين، وبهذا زالت الدولة الفاطمية تمامًا بعد أن استمرت ٢٦٢ سنة.

## سلطان مصر

أخذ صلاح الدين يقوّي مركزه في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية، ويسعى من أجل الاستقلال بها، فعمل على كسب محبة المصريين، وأسند مناصب الدولة إلى أنصاره وأقربائه، وعزل قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة شافعيين، وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي. ثم أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ٥٦٥ هـ، الموافقة سنة ١١٦٩م، بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون جميعًا: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطابوعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب،[٥١] كما أسس مدرستين كبيرتين في الفسطاط هما المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية حتى يُثبّت مذهب أهل السنة في البلاد، وكانت هاتان المدرستان تُلقنا علوم الشريعة وفق المذهبين المالكي والشافعي..

وتخوّف نور الدين زنكي من تزايد قوة تابعه صلاح الدين، وكانت العلاقة بينهما على فتور أصلاً منذ أن تولّى صلاح الدين الحكم في مصر. بدأ هذا التوتر في العلاقة يظهر عندما تأخر صلاح الدين في الخطبة للخليفة العباسي في بغداد، حتى هدده نور الدين بالمسير إليه، وظهر أيضًا عندما أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال: «أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد».

وازداد الخلاف بينهما في سنة ٥٦٧ هـ، الموافقة سنة ١١٧٢م، حتى أصبح وحشةً، وذلك عندما اتفقا على حصار قلعتيّ الكرك ومدينة الشوبك في صحراء الأردن، ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين، خوفًا من أن يعزله الأخير عن مصر، وأن تؤدي السيطرة على القلعتين إلى فتح الطريق أمام نور الدين إلى القاهرة، فانسحب صلاح الدين متذرعًا بالأوضاع الخطيرة في مصر، فعظم الأمر على نور الدين، حتى قرر المسير إلى مصر. لما علم صلاح الدين بذلك جمع مقربيه وشاورهم بالأمر فمنهم من نصح بمقاتلة نور الدين إلا أن والده وخاله منعوه من ذلك وطالبه والده بإرسال رسائل الاعتذار والتبرير لنور الدين،

لكن نور الدين لم يقتنع بأي من تلك التبريرات، وعزم على تسيير حملة إلى مصر لخلع صلاح الدين في أقرب فرصة متاحة.

وفي صيف سنة ١١٧٢م، وردت أنباء تفيد بأن جيشًا من النوبيين ترافقه عناصر أرمنيّة قد بلغ حدود مصر ويُحضّر لحصار أسوان، فطلب أميرها المعونة العسكرية من صلاح الدين، فأرسل إليه تعزيزات بقيادة شقيقه الأكبر، توران شاه، أرغمت النوبيين على الانسحاب. عاد الجيش النوبي إلى مصر في سنة ١١٧٣م، لكنه رُدّ على أعقابه في هذه المرة أيضًا، بل تعقبه الجيش الأيوبي حتى بلاد النوبة، وفتح بلدة قصر إبريم. وفي ذلك الوقت، كان نور الدين زنكي لم يتخذ أي خطوة عسكرية تجاه صلاح الدين بعد، لكنه طالبه بإعادة مبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ دينار كان نور الدين قد خصصه لتمويل حملة أسد الدين شيركوه التي نجحت في فتح البلاد والقضاء على النفوذ الصليبي والفاطمي فيها، فدفع صلاح الدين ٦٠٫٠٠٠ دينار، وأرفقها بحمل من أفضل البضائع وبعض الجواهر، إضافة لحصان عربي أصيل، وفيل، واعتبر ذلك وفاءً للدين. استغل صلاح الدين فرصة مروره في الأراضي الشامية الصليبية لتوصيل الأموال والهدايا إلى دمشق، وأغار على بعض معاقل البدو في الصحراء ليحرم الصليبيين من فرصة الاستعانة بمتقفي الأثر أو أدلاء محليين يرشدونهم في حال قرروا مهاجمة مصر أو الأراضي الإسلامية المجاورة لهم، وجرى بينه وبين الإفرنج عدّة وقعات. وفي أثناء وجود صلاح الدين في الشام، أصيب والده نجم الدين أيوب بحادث أثناء امتطائه جواده، وتوفي في ٢٧ ذي الحجة ٥٦٨ هـ، بعد أيام قليلة قبل وصول صلاح الدين إلى مصر.[٥٩] وفي سنة ١١٧٤م، الموافقة سنة ٥٦٩ هـ، بلغ صلاح الدين أن رجلاً باليمن استولى عليها، وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي، ولمّا تبيّن له قوّة جيشه وكثرة جنوده، سيّر صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن، فقتل ابن مهدي، وأخذ البلاد منه، عندئذ أعلنت الحجاز انضمامها إلى مصر أيضًا.

أخذ نور الدين زنكي يجمع جيشًا ضخمًا في ربيع سنة ١١٧٤م، في محاولة لخلع صلاح الدين في مصر على ما يبدو، فأرسل رسلاً إلى الموصل وديار بكر والجزيرة الفراتية يحثون الرجال ويدعونهم للجهاد، غير أن تلك الحملة لم يُكتب لها أن تتم، إذ وقع نور الدين في أوائل شوال

من سنة ٥٦٩ هـ الموافقة في شهر مايو من سنة ١١٧٤م بالذبحة الصدرية وبقي على فراش المرض أحد عشر يوما ليتوفى في ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ الموافق فيه ١٥ مايو سنة ١١٧٤م، وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وبوفاة نور الدين، استحال صلاح الدين سيد مصر الأوحد بشكل فعليّ، حيث استقل عن كل تبعية سياسية، ويُقال أنه أقسم آنذاك أن يُصبح سيفًا مسلولاً على أعدائه وأعداء الإسلام، وأصبح هو رأس أقوى سلالة حاكمة إسلامية في ذلك العهد، هي السلالة الأيوبية، لذا جرت عادة المؤرخين على تسمية المناطق التي خضعت لسلطانه وسلطان تابعيه بالدولة الأيوبية.

## ضم الشام

## فتح دمشق

كان نور الدين زنكي قد استخلف ولده الملك الصالح إسماعيل ذي الأحد عشر ربيعًا، أميرًا على دمشق، وبعد أن توفي نور الدين كان أمام صلاح الدين خياران أحلاهما مرّ: إما أن يُهاجم الممالك الصليبية من مصر ويتركها مفتوحة وعرضة لهجمات بحرية أوروبية وبيزنطية، أو أن ينتظر حتى يستنجد به الملك الصالح خصوصًا وأنه ما زال صبيًا لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، كذلك كان أمام صلاح الدين خيار حاسم، وهو أن يدخل دمشق ويسيطر عليها ويتولى شؤون البلاد بنفسه، ويُحضرها لقتال الصليبيين، غير أنه تردد في إتيان الخيار الأخير، بما أنه قد يُنظر إليه حينها أنه قد شق عصا الطاعة ونكر المعروف والاحترام المتبادل والثقة التي منحه إياها نور الدين زنكي عندما ولاّه قيادة الجيوش بعد وفاة أسد الدين شيركوه، وساعده على تمكين منصبه في مصر، وعندها قد لا ينظر إليه الجنود والناس أنه جدير بقيادة جيش المسلمين. لذا فضّل صلاح الدين انتظار دعوة من الملك الصالح، أو أن ينذره بنفسه من احتمال تصاعد الخطر الصليبي على دمشق.

واختلفت الأحوال بالشام، فنُقل الصالح إسماعيل إلى حلب وعُين سعد الدولة كمشتكين، أمير المدينة وكبير قدامى الجنود الزنكيين، وصيًا عليه حتى يبلغ أشدّه، وسرعان ما طمع

كمشتكين بتوسيع رقعة نفوذه حتى تشمل باقي مدن الشام الداخلية والجزيرة الفراتية، وقرر فتح دمشق، فراسل أمير المدينة، شمس الدين بن المقدم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود أمير الموصل وابن عم الملك الصالح إسماعيل، طالبًا منه التدخل للمساعدة، لكنه رفض، فكاتب شمس الدين بن المقدم صلاح الدين، فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهرًا أنه يتولى مصالح الملك الصالح. تكوّن جيش صلاح الدين من ٧٠٠ خيّال، عبر بهم الكرك وصولاً إلى بصرى، وفي أثناء الطريق انضمت إلى الجيش جموع من الكرد والعرب من أمراء وأحرار وبدو «سيماهم في وجوههم» كما ورد على لسان صلاح الدين. دخل الجيش دمشق في شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ هـ، الموافق فيه شهر نوفمبر من سنة ١١٧٤ م، وأول ما دخل صلاح الدين كان دار أبيه وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة وتسلمها من نائب القلعة الطواشي جمال الدين ريحان بعد ٤ أيام من وصوله.

## فتوحات الشام الداخلية

استناب صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين على دمشق قبل انطلاقه لضم باقي مدن الشام الداخلية التي استحالت مستقلة عن أي تبعيّة بحكم الأمر الواقع بعد وفاة نور الدين زنكي، فغنم حماة بسهولة، وعدل عن حصار مدينة حمص لمناعة أسوارها، ثم حوّل أنظاره نحو حلب وهاجمها بعد أن رفض أميرها «كمشتكين» الخضوع، وخرج الصالح إسماعيل إلى الناس وجعل يُخاطبهم ويحثهم ألاّ يسلموا المدينة إلى جيش غاز، وقد قال أحد المؤرخين الأيوبيين أن كلمات الصالح إسماعيل أمام الناس كانت «كأثر سحر ساحر» على السكان.

راسل كمشتكين شيخ الحشاشين المدعو رشيد الدين سنان، الذي كان على خلاف مع صلاح الدين ويمقته مقتًا شديدًا بعد أن أسقط الدولة الفاطمية، واتفق معه على أن يقتل صلاح الدين في قلب معسكره، فأرسل كتيبة مكونة من ثلاثة عشر حشاشًا استطاعت التغلغل

في المعسكر والتوجه نحو خيمة صلاح الدين، إلا أن أمرهم انفضح قبل أن يشرعوا بالهجوم، فقُتل أحدهم على يد أحد القادة، وصُرع الباقون أثناء محاولتهم الهرب.

وفي أثناء ذلك، تحرّك ريموند الثالث صاحب طرابلس لمهاجمة حمص، وحشد جيشه بالقرب من النهر الكبير الجنوبي، على الحدود اللبنانية السورية الشمالية حاليًا، لكنه سرعان ما تراجع عن تحقيق هدفه، لمّا بلغه أن صلاح الدين قد أرسل فرقة عسكرية كبيرة مجهزة بالعتاد اللازم لتنضم إلى حامية المدينة.

وفي غضون هذا الوقت كان أعداء صلاح الدين في الشام والجزيرة الفراتية يطلقون حملات مضادة له ويهجونه كلّما سنحت الفرصة، فقالوا أنه نسي أصله، فهو ليس سوى خادم للملك العادل نور الدين زنكي، بل خادم ناكر للمعروف لا يؤتمن على شيء، خان سيده ومولاه ونفى ولده من بلاد أبيه إلى بلاد أخرى، وجعل يُحاصرها بعد ذلك. فردّ صلاح الدين على تلك الحملات الشرسة قائلاً أنه لم يُحاصر حلب ولم يحضر إلى الشام منذ البداية إلا لحماية دار الإسلام والمسلمين من الجيوش الصليبية، وليستعيد ما سُلب من الأراضي المقدسة، وإن هذه مهمة لا يمكن أن يتولاها صبي لم يبلغ أشدّه بعد، ويسهل التلاعب به من قبل أصحاب النفوس الخبيثة. وليُطمئن الناس أكثر، سار صلاح الدين على رأس جيشه إلى حماة ليُقاتل فرقة صليبية أُرسلت لفتح المدينة، إلا أن الصليبيين انسحبوا قبل اللقاء بعد أن بلغهم حجم الجيش الأيوبي، فدخل صلاح الدين المدينة بسهولة، وتسلّم قلعتها في شهر مارس من سنة ١١٧٥م، بعد مقاومة عنيفة من حاميتها.

بعد هذه الأحداث، علم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل أن صلاح الدين قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه، فأنفذ عسكرًا وافرًا وجيشًا عظيمًا وقدّم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد، فلما بلغ صلاح الدين ذلك فك الحصار عن حلب في مستهل رجب من السنة عائدًا إلى حماة استعدادًا للقائهم. وعندما وصل عز الدين مسعود إلى حلب، انضم إلى جيشه عسكر

ابن عمهالملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وخرجوا في جمع عظيم، فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم، والتقى الجمعان عند قرون حماة بقرب نهر العاصي، ووقعت بينهما معركة عظيمة هزم فيها الزنكيون على يد صلاح الدين، وأُسرت جماعة منهم، وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان من سنة ٥٧٠ هـ، الموافقة في ٢٣ أبريل من سنة ١١٧٥ م، ثم سار صلاح الدين عقيب انتصاره ونزل على حلب مرة أخرى، فصالحه الزنكيون على أخذ معرة النعمان وكفر طاب وبارين.

أعلن صلاح الدين نفسه ملكًا على البلاد التي افتتحها بعد انتصاره على الزنكيين، وخطب له أئمة المساجد يوم الجمعة باسم «الملك الناصر»، وضُربت الدنانير الذهبية في القاهرة باسمه، وعضّد مُلكه بالزواج من أرملة نور الدين زنكي المدعوة عصمة الدين خاتون. وسرعان ما أصبحت سيادة صلاح الدين على البلاد سيادة مشروعة عندما أسند الخليفة العباسي في بغدادإليه السلطة على مصر والمغرب الأدنى والنوبة والحجاز و تهامة وفلسطين وسوريا الوسطى، وخلع عليه لقب «سلطان مصر والشام».

استمرت الحرب بين الأيوبيين والزنكيين على الرغم من انتصار صلاح الدين في حماة، وحدثت الموقعة الأخيرة بينهما في صيف سنة ١١٧٦ م. كان صلاح الدين قد أحضر جيوشه منمصر استعدادًا للقاء الحاسم، وقام سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بتجنيد الرجال في المناطق التي ما زال يسيطر عليها، في ديار بكر وقرى وبلدات الجزيرة الفراتية.

عبرالأيوبيون نهر العاصي متجهين شمالاً حتى وصلوا تل السلطان على بعد ٢٤ كيلومترًا (١٥ ميلاً) من حلب، حيث قابلوا الجيش الزنكي، فاشتبك الجيشان في معركة ضارية، واستطاعالزنكيون دحر ميسرة الجيش الأيوبي، فاندفع صلاح الدين بنفسه تجاه حرّاس سيف الدين غازي وأعمل فيهم السيف، فتشجع الأيوبيون واندفعوا يمزقون صفوف الجيش الزنكي، فذُعر الزنكيون وأخذوا يتقهقرون تاركين في ساحة المعركة الكثير من القتلى، كاد سيف الدين أن يكون من ضمنهم. قُتل في المعركة العديد من ضبّاط الجيش الزنكي وأُسر

بعضهم الآخر، وغنم الأيوبيون معسكر الزنكيين بما فيه من خيام وأمتعة وخيول وأسلحة، وعامل صلاح الدين الأسرى معاملة كريمة، فمنحهم هدايا وأطلق سراحهم، ثم وزّع غنائم المعركة كلها على جنوده، ولم يحتفظ بشيء لنفسه.

سار صلاح الدين بعد انتصاره ليعاود حصار مدينة حلب، وفي أثناء سيره فتح الجيش الأيوبي حصن بزاعة وحصن منبج، ومن ثم توجّه غربًا لإخضاع حصن أعزاز، وعندما ضرب الجيش الحصار على الحصن، اقتحم بعض الحشاشين المندسين المعسكر واستطاع أحدهم الوصول إلى خيمة صلاح الدين وضربه بسكين على رأسه، فحمته الخوذة غير أن السكين مرت على خده وجرحته جرحًا هينًا، واستطاع إمساك الحشاش، فصارعه الأخير أرضًا وحاول نحره، لكن صلاح الدين تمكن منه، وأعانه عليه وعلى رفاقه الجنود الأيوبيون وأقاربه وقتلوهم جميعًا.

كان لمحاولة الاغتيال هذه أثر كبير على صلاح الدين، فقد عزم على القضاء على كمشتكين أمير حلب، الذي سبق وتواطأ مع الحشاشين لقتل صلاح الدين، وأصبح شديد الحذر لا يُقابل إلا من يعرفه.

بعد أن تمّ النصر وافتتح حصن أعزاز في ذي الحجة من سنة ٥٧١ هـ حوّل صلاح الدين أنظاره ناحية حلب وضرب الحصار عليها كي يقتصّ من الأمير كمشتكين، فقاومته الحامية مقاومة شديدة مرة أخرى، ففشل في اقتحام المدينة، غير أنه تمكن من فرض هدنة على كمشتكين والملك الصالح إسماعيل وأبرم حلفًا معهما، وجاء في نص الهدنة أن يحتفظ الزنكيون بمدينة حلب مقابل اعترافهم بسلطان صلاح الدين على كامل الأراضي التي أخضعها، وسرعان ما اعترف أمراء ماردين وجوارها بسيادة صلاح الدين وبملكه على الشام. وعندما انتهت الهدنة أرسل الملك الصالح شقيقته الصغرى الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين مطالبة إياه بإعادة حصن أعزاز إلى الزنكيين، فاستجاب لطلبها ورافقها بنفسه حتى بوابة حلب محملة بهدايا كثيرة.

## الحملة على الحشاشين

بعد أن تحالف صلاح الدين مع الزنكيين وأبرم معاهدة سلام مع مملكة بيت المقدس، لم يبق له من خطر يهدد دولته إلا طائفة الحشاشين بقيادة شيخ الجبل رشيد الدين سنان بن سليمان بن محمود، كانت هذه الطائفة تتبع طريقة الاغتيال المنظم للتخلص من أعدائها ومنافسيها. وكان الحشاشون يمتنعون في سلسلة من القلاع والحصون في عدد من المواقع المشرفة الشاهقة في جبال النصيرية، ولمّا عزم صلاح الدين على إبادة طائفتهم وكسر شوكتهم، أرسل بعض الفرق العسكرية إلى جبالهم، وأعاد ما تبقى من جنود إلى مصر، وتولّى صلاح الدين قيادة الجيش بنفسه، وضرب الحصار على جميع قلاع الحشاشين خلال شهر أغسطس من عام١١٧٦م، لكنه لم يتمكن من فتح أي منها، ففك الحصار وانسحب بجيشه مدمرًا كل المعاقل غير الحصينة التابعة لتلك الطائفة أثناء سيره. بينما ذكر ابن كثير وابن الأثير أن صلاح الدين حاصر حصنهم مصياف وقتل منهم وسبى ثم شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن يكش، فقبل شفاعته فصالح الحشاشين، ثم كرّ راجعًا إلى دمشق.

غير أن بعض المخطوطات العائدة لرشيد الدين سنان نصّت على أن صلاح الدين انسحب خوفًا على حياته، وإنه كان ينثر الرماد وغبار الطبشور حول خيمته ليلاً عندما حاصر قلعة مصياف، ليعرف ما إذا كان الحشاشون يأتون ليلاً بالقرب منه، وجعل كل حارس من حرّاسه يحمل سراجًا مضيئًا.

أما بالنسبة لرواية صلاح الدين نفسه، فقد قال فيها أن حرّاسه لاحظوا لمعان معدن على إحدى تلال مصياف ذات ليلة، ومن ثم اختفى بين خيم الجنود، وأفاد صلاح الدين أنه استيقظ من نومه ليرى شخصًا يخرج من الخيمة، وكانت المصابيح فيها قد بُعثرت وبقرب سريره عثر على كعك مرقق، وهي العلامة المميزة للحشاشين، وفي أعلى الخيمة وجد رسالة معلقة بخنجر مسموم كُتب فيها تهديد له إن لم يغادر الجبال فسوف يُقتل. عندئذ صاح صلاح الدين أن سنانًا كان في خيمته وغادرها، وقد جعلته هذه التجربة يُدرك عجزه قتال الحشاشين

وإفنائهم بسرعة، فطلب من جنوده أن يراسلوهم كي يُبرم حلفًا معهم، فيكون بهذا قد حقق انتصارًا آخر، ألا وهو حرمان الصليبيين من حليف مهم.

## العودة إلى مصر والغزوات في فلسطين

انسحب صلاح الدين من جبال النصيرية بعد أن لم يتمكن من فتح قلاعها عائدًا إلى دمشق، ثم سرّح جنوده الشوام وجعلهم يعودون إلى منازلهم للراحة والاستعداد للحروب القادمة، ثم رحل عن المدينة برفقة حرّاسه فقط قاصدًا مصر، فوصل القاهرة بعد حوالي شهر. كان على صلاح الدين تنظيم كثير من الأمور في الديار المصرية بعد أن غاب عنها حوالي سنتين قضاها في معارك متواصلة في الشام، وفي مقدمة هذه الأمور تحصين القاهرة وإعادة بناء أقسامها المهدمة، فأقدم على إصلاح أسوارها وإمداد المزيد منها، كذلك شرع في بناء قلعة القاهرة سنة ٥٧٣ هـ التي عُرفت فيما بعد بقلعة صلاح الدين والتي أشرف على بنائها بهاء الدين قراقوش، وبئر يوسف البالغ من العمق ٨٥ مترًا (٢٨٠ قدمًا). ومن أعمال صلاح الدين الأخرى بناء جسر ضخم في الجيزة ليُشكل إحدى خطوط الدفاع الأوليّة ضد غزو مغربي محتمل.

بقي صلاح الدين في القاهرة يُشرف على الأعمال العمرانية فيها، فبنى إلى جانب المباني العسكرية بضعة مدارس لنشر العلم، وتابع إدارة البلاد الداخلية بنفسه، واهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتخفف عنهم عناء الحياة، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون للمساجد للعيش فيها، وجعل من مسجد أحمد بن طولون في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب.

وفي شهر جمادى الآخر سنة ٥٧٣ هـ الموافق فيه نوفمبر من سنة ١١٧٧ م، أغار الصليبيون على ضواحي دمشق، فاعتبر صلاح الدين أن الهدنة مع مملكة بيت المقدس قد نُقضت وانتهى أمرها، فجمع الرجال وسار إلى فلسطين ليُغير على بعض المواقع الصليبية، فما كان من الصليبيون إلا أن أرسلوا جزءً كبيرًا من جيشهم إلى مدينة حارم شمال حلب ليحولوا انتباه الأيوبيين إلى

تلك الأنحاء، لكن صلاح الدين استمر بغزاته على بعض المواقع الثانوية في فلسطين بعد أن فرغت من الرجال الذين أرسلوا مع الجيش الصليبي شمالاً ثم توجّه إليعسقلان، التي قال أنها «عروس الشام»، بعد أن رأى أن الوضع مؤات لهكذا تحرّك. يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الجيش الأيوبي تكوّن من ٢٦٬٠٠٠ جندي، ٨٬٠٠٠ منهم كانوا يشكلون النخبة، و ١٨٬٠٠٠ كانوا أرقاء زنوج من السودان. واصل صلاح الدين يغزو المواقع الصليبية الثانوية الواحد تلو الآخر، فهاجم الرملة واللد، وبلغ بوّابات القدس.

## الحرب والهدنة مع بلدوين الرابع

تحرّك ملك بيت المقدس الشاب بلدوين الرابع بن عموري «الأبرص»، أثناء وجود صلاح الدين على مشارف القدس، وسار بجمع من فرسان الهيكل من مدينة غزة ودخل عسقلان. ووصلت هذه الأنباء إلى صلاح الدين فعاد بقسم من جيشه إلى ضواحي المدينة، لكنه تردد في مهاجمة الصليبيين على الرغم من التفوق العددي للأيوبيين، وذلك لوجود عدد من القادة المهرة المخضرمين في صفوفهم، وكان لهذا التردد في الهجوم أثره الكبير، إذ قام الصليبيون تحت قيادة الملك بلدوين وأرناط آل شاتيون صاحب الكرك بهجوم مفاجئ بتاريخ ٢٥ نوفمبرمن سنة ١١٧٧ م، وأخذوا الأيوبيين على حين غرّة وهزموهم في تل الجزر بالقرب من الرملة، وقد حاول صلاح الدين تنظيم صفوف الجيش وحشد الجنود مجددًا، لكنهم تشتتوا، وصُرع في المعركة جميع حرّاسه، فرأى الانسحاب إلى مصر وإنقاذ ما تبقى من العساكر

استعد صلاح الدين لمنازلة الصليبيين مجددًا بعد عودته إلى مصر، فجمع الجنود والعتاد اللازم، ولم تثبط عزيمته رغم الهزيمة التي لحقت به في فلسطين، بل زادته إصرارًا على القتال. وفي ربيع سنة ١١٧٨ م، نزل الجيش الأيوبي بقرب حمص، وحصلت بضعة مناوشات بينه وبين الجيش الصليبي، وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤ هـ، الموافق فيه شهر أغسطس سنة١١٧٨م، هاجمت فرق صليبية أخرى مدينة حماة والقرى المجاورة وقتلت بعض السكان، لكنها هُزمت

على يد حامية المدينة وأُسر كثير من أفرادها، واقتيدوا إلى صلاح الدين الذي أمر بإعدامهم كونهم «عاثوا فسادًا في أرض المؤمنين».

أمضى صلاح الدين بقية العام في الشام دون أي يخوض معارك أخرى، لكن الحال لم يدم طويلاً على هذا النحو، فقد وصلت صلاح الدين أنباء مقلقة من جواسيسه تقول بأن الصليبيين يخططون لشن حملة عسكرية على سوريا الوسطى، فأمر ابن أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، بأن يقف على الجبهة الدمشقية ومعه ألف من الجنود استعدادًا لضبط أي هجوم، وألا يلتحم مع الصليبيين في قتال، وإن حصل وتقدموا إلى المدينة، فعليه الانسحاب وإضاءة المنارات المنصوبة على التلال المحيطة حتى يعلم صلاح الدين بمجيئهم فيُلاقيهم بنفسه. وفي شهر ذي القعدة سنة ٥٧٤ هـ الموافق فيه شهر أبريل من عام ١١٧٩م، تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين نحو دمشق متوقعين مقاومة ضعيفة، وشرعوا في مهاجمة القرى والرعاة في مرتفعات الجولان، فتصدت لهم فرقة عسكرية أيوبية بقيادة فروخ شاه، ثم انسحبت من أمامهم، فتعقبوها حتى جنوب شرق القنيطرة حيث كان الجيش الأيوبي منتظرًا، فوقعت معركة كان النصر فيها لصالح الأيوبيين.

قام صلاح الدين بتعزيز قواته بعد هذا النصر، فطلب من أخاه الأصغر الملك العادل سيف الدين أبو بكر، أن يُرسل إليه ١٥٠٠ فارس من مصر لينضموا إلى الجيش في الشام.

بحلول صيف عام ١١٧٩م، كان بلدوين الرابع قد أقام حصنًا حدوديًا سماه المؤرخون المسلمون «حصن مخاضة الأحزان» على الطريق المؤدية إلى دمشق ليؤمنها، وعزم على بناء جسر فوق نهر الأردن هو «معبر يعقوب» (يُعرف اليوم باسم جسر بنات يعقوب) ليصل الأراضي الصليبية بسهل بانياس الذي يفصل بين الإمارات الصليبية والأراضي الإسلامية. اعترض صلاح الدين على هذا المشروع واعتبره عملاً عدوانيًا تجاه المسلمين، وعرض على بلدوين ١٠٠٫٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل تخليه عن هذا المشروع، لكن الأخير رفض التسوية، فعزم صلاح الدين على مهاجمة الحصن الحدودي وتدميره، ثم سار بجيشه وجعل مركزه بانياس. هرع الصليبيون للقاء المسلمين بعد تلك الخطوة، لكن جيشهم تشتت، حيث تلكأ المشاة في الخلف،

واستمر صلاح الدين يستدرجهم بعيدًا حتى ما إن تبين له أن الفرصة سانحة وإن الجيش الصليبي منهك، انقض عليهم واشتبك الجيشان في معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون، وأُسر كثير من كبار الفرسان الصليبيين، ثم تحرّك صلاح الدين صوب الحصن وضرب الحصار عليه، ثم دخله فاتحًا في ٢٦ ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ الموافق فيه ٣٠ أغسطس من سنة١١٧٩م.

وفي ربيع سنة ١١٨٠م، وبينما كان صلاح الدين في صفد يُحضّر لغزو بيت المقدس، راسله الملك بلدوين يعرض فوافق، والواقع أن القحط في ذلك العام كان دافعًا أساسيًا لكلا الرجلين ليتوقفا عن القتال، حيث ذبلت المحاصيل ولم ينضج منها إلا القليل، فقلّت مؤن الجيشين الصليبي والأيوبي، وأصبح يتعذر على أي منهما ضرب حصار على قلعة أو مدينة تابعة للآخر، دون المجازفة بحدوث مجاعة في صفوف الجند. رفضريموند الثالث صاحب طرابلس الالتزام بالهدنة في بادئ الأمر وأصرّ على القتال، لكنه سرعان ما رضخ للمعاهدة بعد أن أغار الجيش الأيوبي على إمارته في شهر مايو، وظهر الأسطول الإسلامي بالقرب من مرفأ طرطوس مهددًا بالهجوم.

## القضايا المحلية

كان صلاح الدين قد حاول التقرّب من أمير حصن كيفا المدعو نور الدين محمد الأرتقيّوني، عندما عرض التوسط بينه وبين عز الدين قلج أرسلان بن مسعود، سلطان سلاجقة الروم، لإنهاء خلاف قائم، حيث كان الأخير قد طالب نور الدين بإعادة بعض الأراضي التي حصل عليها كهدية زفاف بعد زواجه من ابنته، ثم تبيّن أنه يُسيء معاملتها وأن هدفه من ذلك الزواج لم يكن سوى السيطرة على مزيد من المناطق فحسب، وقد قبل نور الدين وساطة السلطان الأيوبي بينما رفضها قلج أرسلان. وفي شهر يونيو من سنة ١١٨٠م، استقبل صلاح الدين الأمير نور الدين محمد وأخاه أبو بكر في محاولة لكسب الود وتوطيد العلاقات مع الأرتقيون تمهيدًا لأي مجابهة يُحتمل وقوعها بين الأيوبيين وأمراء الموصل والأناضول والملوك الصليبيين، وأرفق كلا الأميرين بهدايا قيل بأن قيمتها تخطت ١٠٠٫٠٠٠ دينار. بعد هذا اللقاء، راسل السلطان قلج

أرسلان صلاح الدين معلنًا قبوله الوساطة ودخوله في الحلف الأيوبي الأرتقيّوني، فابتهج صلاح الدين لهذا الخبر لما تضمنه من بشائر إعادة توحيد الأراضي الإسلامية، لكن فرحه سرعان ما تحوّل إلى غضب عارم، عندما وصلته رسالة من أرسلان يقول فيها أن نور الدين عاد ليُسيء معاملة زوجته ابنة سلطان آل سلجوق، فهدد صلاح الدين بالمسير إلى ملطية عاصمة نور الدين ليؤدبه بنفسه ولينهي الخلاف القائم بين حاكمين مسلمين في وقت كان المسلمون فيه بأشد الحاجة لأن يتوحدوا،[١٠٠] وفي واقع الأمر فإن صلاح الدين لم يرغب بالمسير إلى نور الدين محمد، ذلك أنه تحالف معه ولم يعد يستطيع أن ينقض هذا الحلف، وفي الوقت نفسه كان للسلطان قلج أرسلان كامل الحق في الخوف على ابنته والدفاع عنها ومنع استغلالها لغايات سياسية، فجاء خطاب صلاح الدين حادًا في سبيل إخافة نور الدين وحثه على الخضوع. ولمّا تبيّن لنور الدين محمد أنه لا يقدر على الجيش الأيوبي، خضع لأوامر صلاح الدين وعز الدين قلج أرسلان، ووافق على أن يُرسل امرأته إلى أبيها طيلة سنة من الزمن، خصوصًا بعد أن جاء في رسالة بعثها إليه صلاح الدين، أنه إن خرق هذا الاتفاق فسوف ينقض صلاح الدين الاتفاقية بينهما.

عاد صلاح الدين إلى القاهرة بداية عام ١١٨١م وترك فروخ شاه ليتولّى شؤون الشام أثناء غيابه؛ يقول أبو شامة المقدسي أن صلاح الدين كان ينوي تمضية شهر رمضان في مصر ذلك العام، ومن ثم يذهب للحج في مكة، لكن لأسباب غير واضحة عدل عن حج البيت الحرام، وشوهد في شهر يونيو وهو يتفقد ضفاف النيل. وفي تلك الفترة حدثت بينه وبين البدو بعض الإشكالات، إذ اتهم بعضهم بالإتجار مع الصليبيين، فصادر محاصيلهم وأرغمهم على مغادرة شرق مصر والسكن في غربها، واستولى على ثلثيّ الأراضي التابعة للإقطاعيين منهم وأعطاها لإقطاعيي الفيوم ليعوضهم عن أراضيهم الخاصة التي هدف أن يجعلها ملكًا عامًا للدولة، كما حوّل بعض السفن الحربية على قراصنة الأنهار من البدو الذين كانوا يغيرون على المزارع والقرى المجاورة للنيل وفروعه.

في صيف سنة ١١٨١م، قاد أخو صلاح الدين سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن

أيوب، في فرقة عسكرية لاعتقال نائب توران شاه في بلدة زبيد باليمن، حطان بن كامل بن منقذ الكناني الكلبي، لاختلاس العوائد المالية للبلدة التي يتولّى أمورها، غير أن صلاح الدين قال أنه ليس هناك من دليل يفيد بصحة ما قيل، وأمر بإطلاق سراحه مقابل ٨٠٫٠٠٠ دينار له شخصيًا ومبالغ أخرى لإخوته.[١٠٣] كان اعتقال حطان الكناني الكلبي المثير للجدل نتاج استياء بعض المقربين من صلاح الدين من إدارة بلاد اليمن بعد أن غادرها توران شاه؛ فعلى الرغم من أن نائبوه استمروا يرسلون خراج البلاد، إلا أن السلطة الأيوبية على اليمن أخذت تضعف بعض الشيء، حيث برز صراع على السيادة بين عز الدين عثمان صاحب عدن وصاحب زبيد، مما جعل صلاح الدين يقول أنها تُكلّف الدولة الأيوبية مصاريف كبيرة ولا تعود عليها بالفوائد المرجوّة والمتوقعة.

## توسّع الدولة

### فتح أطراف بلاد ما بين النهرين

توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود في ٣ صفر سنة ٥٧٦ هـ الموافق فيه ٢٨ يونيو من سنة ١١٨٠م، وخلفه شقيقه عز الدين في إمارة الموصل. في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ الموافق فيه ٤ ديسمبر سنة ١١٨١م، توفي الملك الصالح بن نور الدين زنكي في حلب. قبل وفاته، لما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه، ليمنعها من صلاح الدين. رُحّب بعز الدين في حلب، ولكن تملّكه لحلب والموصل كان أمرًا يفوق قدراته، لذا تنازل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكي، في مقابل سنجار والخابور والرقة ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد. لم يحاول صلاح الدين استغلال تلك الظروف احترامًا للمعاهدة التي عقدها في السابق مع الزنكيين.

وفي ٥ محرم سنة ٥٧٨ هـ الموافق فيه ١١ مايو سنة ١١٨٢م، غادر صلاح الدين الأيوبي القاهرة مع نصف الجيش الأيوبي المصري والعديد من المتطوعين إلى الشام. وعندما علم أن القوات الصليبية احتشدت على الحدود لاعتراضه، غير طريقه عبر سيناء إلى أيلة، وهناك لم

يلق صلاح الدين أي مقاومة من قوات بلدوين. وعندما وصل إلى دمشق في يونيو، أغار عز الدين فروخ شاه على بلاد طبرية، واحتل دبورية وحابس جلدق، وهو أحد الحصون ذات الأهمية الكبيرة للصليبيين.

في يوليو، أرسل صلاح الدين فروخ شاه لمهاجمة كوكب الهوا. وفي أغسطس، شنّ الأيوبيون هجومًا بريًا وبحريًا للاستيلاء على بيروت؛ وقاد صلاح الدين جيشه في سهل البقاع، ولما بدا لصلاح الدين أن الهجوم قد يفشل، فضّل إيقاف هجومه والتركيز على مهمته نحو في بلاد ما بين النهرين.

دعا مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو أحد أمراء حران، صلاح الدين لاحتلال بلاد الجزيرة، الواقعة شمال بلاد ما بين النهرين. ومع انتهاء الهدنة بينه وبين الزنكيين رسميًا في جمادى الأول سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه شهر سبتمبر من عام ١١٨٢م، وقبل سيره إلى بلاد الجزيرة، كان التوتر قد ازداد بين الحكام الزنكيين في المنطقة، نظرًا لعدم رغبتهم في دفع الجزية لصاحب الموصل.

وقبل عبوره الفرات، حاصر صلاح الدين حلب لمدة ثلاثة أيام، بمجرد أن انتهت الهدنة.

وما أن وصل إلى قلعة البيرة قرب نهر الفرات، حتى انضم إليه كوكبري ونور الدين صاحب حصن كيفا، واستولت القوات المشتركة على مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى، فسقطت الرها تلتها سورج ثم الرقةوقرقيسية ونصيبين.

كانت الرقة نقطة عبور هامة والتي كانت في يد قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، الذي سبق وخسر منبج أمام قوات صلاح الدين الأيوبي عام ١١٧٦م. لما رأى قطب الدين كبر حجم جيش صلاح الدين، لم يُقدم على إبداء أي مقاومة واستسلم على أن يحتفظ بممتلكاته. أثار صلاح الدين الأيوبي إعجاب أهالي المدينة بعدما أمر بإلغاء عدد من الضرائب، حيث قال «إن شر الحكام هم من يسمنون وشعوبهم جياع». من الرقة، غزا ماكسين ودورين وعرابان والخابور، والتي خضعت جميعها له.

ثم توجّه صلاح الدين لغزو نصيبين التي سلّمت دون مقاومة. كانت نصيبين بلدة متوسطة الحجم، ليست ذات أهمية كبيرة، لكنها كانت تقع في موقع استراتيجي بين ماردين والموصل ويسهل الوصول إليها من ديار بكر.

في خضم هذه الانتصارات، وردت صلاح الدين أخبار تقول أن الصليبيين أغاروا على قرى دمشق. فأجاب «دعهم.. ففي الوقت الذي يهدمون فيه القرى، نستولي نحن على المدن؛ وعندما نعود، سيتعين علينا جمع المزيد من القوة لمحاربتهم».

وفي الوقت نفسه، في حلب، داهم أميرها الزنكي مدن صلاح الدين في الشمال والشرق، مثل باليس ومنبج وسورج وبوزيع والقرضين، كما دمر قلعته في بلدة أعزاز لكي لا يستخدمها الأيوبيون إن استطاعوا الاستيلاء عليها.

## ضم حلب

بعد الموصل اهتم صلاح الدين بضم حلب، فأرسل شقيقه تاج الملوك بوري لاحتلال تل خالد، الواقعة على بعد ١٣٠ كيلومتر شمال شرق الموصل، وجهّز لحصارها، إلا أن حاكم تل خالد استسلم مع وصول صلاح الدين نفسه في ١٧ مايو قبل ضرب الحصار. بعد تل خالد، قام جيش صلاح الدين الأيوبي بالتوجه شمالاً إلى عينتاب لاحتلالها، ومن ثم العودة سريعًا لمسافة ٦٠ كم في اتجاه حلب. وفي ٢١ مايو، عسكر صلاح الدين خارج حلب، وتمركز بنفسه شرق قلعة حلب، كما طوّقت قواته ضاحية بناقسة في الشمال الشرقي وباب جنان في الغرب، وتمركز باقي رجاله بالقرب من المدينة، على أمل فتحها في أقل وقت ممكن.

لم يقاوم عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود لفترة طويلة، حيث لم يكن يحظ بشعبية بين رعاياه، ولرغبته في العودة إلى سنجار المدينة التي كان يحكمها سابقًا. عقدت مفاوضات بغرض تبادل الأراضي، على أن يسلّم زنكي حلب إلى صلاح الدين الأيوبي في مقابل استعادة سيطرته على سنجار ونصيبين والرقة وسروج، وأن تحارب قوات زنكي إلى جانب جيش

صلاح الدين. وبحلول ١٨ صفر ٥٧٩ هـ/ ١٢ يونيو ١١٨٣ م، أصبحت حلب في أيدي الأيوبيين.

لم يعلم أهل حلب بتلك المفاوضات، لذا فوجئوا حين رأوا راية صلاح الدين الأيوبي مرفوعة فوق قلعة حلب. عندئذ، عرض أميران أحدهما عز الدين جردق الصديق القديم لصلاح الدين خدماتهما على صلاح الدين، الذي رحب بذلك. استبدل صلاح الدين القضاء الحنفي بالقضاء الشافعي، مع وعد بعدم التدخل في القيادة الدينية للمدينة. وعلى الرغم من حاجة صلاح الدين للمال، إلا أنه سمح لزنكي بالمغادرة بكل ما استطاع حمله من خزائن قلعة المدينة، وبيع المتبقي لصلاح الدين نفسه.

على الرغم من تردده فيما مضى في إتمام عملية المبادلة، إلا أنه كان واثقًا من نجاحه لتيقّنه من أن حلب هي «الباب الذي سيفتح له الأراضي» وأن «هذه المدينة هي عين الشام وقلعتها وبؤبؤها».

بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي، كان الاستيلاء على المدينة يمثّل له نهاية أكثر من ثماني سنوات من الانتظار، فقد قال لفروخ شاه «نحن لا نملك إلا الانتظار، وحلب ستكون لنا.» فمن وجهة نظره، أنه باستيلائه على حلب سيستطيع الآن تهديد الساحل الصليبي كله.

بعد أن قضى ليلة واحدة في قلعة حلب، سار صلاح الدين إلى حارم بالقرب من أنطاكية الإمارة الصليبية. كانت حارم تحت حكم «سرخك» أحد المماليك صغار الشأن، الذي قدم صلاح الدين الأيوبي له عرضًا بمدينة بصرى وأراضٍ في دمشق في مقابل حارم، ولكن عندما طلب سرخك الحصول على المزيد، أرغمته حامية البلدة على الخروج، حيث تم إلقاء القبض عليه من قبل تقي الدين نائب صلاح الدين الأيوبي بعد مزاعم بأنه كان يخطط للتنازل عن حارم إلى بوهمند الثالث أمير أنطاكية. بعد استسلام حارم، شرع صلاح الدين الأيوبي في ترتيب دفاعات المدينة استعدادًا للصليبيين، وأوفد إلى الخليفة وأتباعه في اليمن وبعلبك بأنه سيهاجم الأرمينيين. وقبل أن يهم بالتحرك، كان لا بد من تسوية بعض التفاصيل الإدارية، فقد وافق صلاح الدين الأيوبي على هدنة مع بوهمند في مقابل رد أسرى مسلمين كان يحتجزهم، ثم ولّى

علم الدين سليمان بن جندر، وهو الأمير الذي انضم إلى صلاح الدين في حلب، إدارة أعزاز، كما ولّى سيف الدين اليزقوج، مملوك عمهأسد الدين شيركوه السابق الذي أنقذه من محاولة اغتيال في أعزاز، إدارة حلب.

## حربه من أجل الموصل

مع اقتراب صلاح الدين من الموصل، كان عليه تبرير مسألة الاستيلاء على تلك المدينة الكبيرة. استغاث زنكيو الموصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد الذي كان وزيره يفضلهم، فأرسل الناصر بدر البدر، وهو شخصية دينية رفيعة المستوى، للتوسط بين الجانبين. وصل صلاح الدين إلى المدينة في ١٠ نوفمبر سنة ١١٨٢م، ولم يقبل عز الدين شروطه لأنه اعتبرها خدعة كبيرة، وعلى الفور

بعد عدة مناوشات طفيفة والمأزق الذي وقع فيه أمام الخليفة، قرر صلاح الدين الأيوبي أن يجد طريقة للانسحاب من الحصار دون أن يلحق ذلك ضررًا بسمعته، لذا قرر أن يهاجم سنجار التي يحكمها شرف الدين أمير أميران هندوا شقيق عز الدين، مع ترك قوة لمواصلة الحصار، فسقطت سنجار بعد حصار دام ١٥ يومًا في ٣ رمضان سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه ٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٢م. لم يلتزم قادة وجنود صلاح الدين بانضباطهم ونهبوا المدينة، وتمكن صلاح الدين بنفسه من حماية حاكم المدينة وضباطه بإرسالهم إلى الموصل. وبعد أن ترك حامية في سنجار، انتظر حتى يجمع جنده من حلب وماردين وأرمينيا لمواجهة عز الدين. توجّه صلاح الدين بجيشه للقاء قواته في حران في شهر ذي القعدة من سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه شهر فبراير من عام ١١٨٣م، وعندما علم عز الدين بقدوم جيش صلاح الدين، أرسل رسله في طلب السلام، وفرّق قواته.

وفي ٦ ذي القعدة سنة ٥٧٨ هـ الموافق فيه ٢ مارس سنة ١١٨٣م، كتب العادل من مصر إلى صلاح الدين الأيوبي بأن الصليبيين قد طعنوا قلب الإسلام، فقد أرسل صاحب الكركأرناط آل شاتيون، سفنًا من خليج العقبة لمداهمة البلدات والقرى قبالة ساحل البحر

الأحمر، وعلى الرغم من أن تلك المحاولة لم تكن هادفة لفرض النفوذ الصليبي على البحر أو للتحكم في طرق التجارة، وكانت مجرد قرصنة، كتب عماد الدين بأن الغارة كانت مقلقة للمسلمين لأنهم لم يكونوا معتادين على الهجمات عبر البحر، وأضاف ابن الأثير بأن السكان لم يعهدوا فرنجيًا قط لا تاجرًا ولا محاربًا.

وقال ابن جبير بأن ستة عشر سفن للمسلمين أحرقها الصليبيون الذين استولوا على سفينة حجاج وقافلة في عيذاب. كما ذكر أيضًا أنهم كانوا ينوون مهاجمة المدينة المنورة ونهب قبر النبي محمد. وأضاف المقريزي إلى أن شائعات انتشرت تزعم بأنهم كانوا سينقلون جثمان النبي محمد إلى الأراضي الصليبية، لجعل المسلمين يحجون إليها. ولحسن حظ صلاح الدين الأيوبي، كان العادل قد نقل السفن الحربية من الفسطاط والإسكندرية إلى البحر الأحمر تحت قيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري، فبدأ بمهاجمة القوات التي هاجمت أيلة وهزمها، ثم سار لقتال من هاجموا عيذاب، فأدركهم في ساحل الحوراء(أملج) ودمر معظم سفنهم، فنزلوا إلى البر محاولين الفرار فهزمهم شر هزيمة. أمر صلاح الدين بقتل الأسرى الصليبيين البالغ عددهم ١٧٠ مقاتل في عدد من مدن المسلمين.

من وجهة نظر صلاح الدين، كانت الحرب ضد الموصل تسير على ما يرام، لكنه لم ينجح بعد في تحقيق أهدافه وبدأ جيشه يتناقص؛ فقد عاد تقي الدين برجاله إلى حماة، وغادر ناصر الدين محمد بن شيركوه بقواته. شجع ذلك عز الدين وحلفائه على الهجوم. فجمع قواته في حرضم الواقعة على بعد ١٤٠ كيلومتر من حران. وفي بداية أبريل، ودون أن ينتظر ناصر الدين، بدأ صلاح الدين وتقي الدين تقدمهم ضد قوات عز الدين، متوجهين شرقًا إلى رأس العين دون أن يلقوا مقاومة.

وبحلول نهاية أبريل، وبعد ثلاثة أيام من القتال، استولى الأيوبيون على آمد. سلم المدينة نور الدين محمد بن قره أرسلان بخزائنها التي بها ٨٠٫٠٠٠ شمعة، وبرج كامل مملوء بالسهام و١٫٠٤٠٫٠٠٠ كتاب. وفي مقابل إعادته حاكمًا للمدينة، أقسم نور الدين الولاء لصلاح الدين الأيوبي، واعدًا إياه بمساعدته في كل حملاته في الحرب ضد الصليبيين وإصلاح الأضرار التي

لحقت بالمدينة. وبسقوط آمد، قرر حاكم ماردين التحالف مع صلاح الدين الأيوبي، وهو ما أضعف تحالف عز الدين.

حاول صلاح الدين الحصول على دعم الخليفة الناصر ضد عز الدين من خلال إرسال رسالة للخليفة يطالبه فيها بمرسوم يعطيه الحق في تملّك الموصل والأراضي التابعة لها. حاول صلاح الدين الأيوبي إقناع الخليفة معللاً طلبه بأنه في الوقت الذي فتح مصر واليمن وأعادها تحت راية العباسيين، كان الزنكيون في الموصل يؤيدون صراحة السلاجقة (منافسي الخلافة)، ولم يخضعوا للخليفة إلا وقت حاجتهم إليه. واتهم أيضًا قوات عز الدين بعرقلة الجهاد ضد الصليبيين، مشيرًا إلى أنهم «لا ينوون القتال فقط، بل ويمنعون الذين يستطيعون ذلك». كما قال صلاح الدين الأيوبي بأنه إنما جاء إلى الشام لقتال الصليبيين وإنهاء بدعة الحشاشين ووضع حد لتخاذل المسلمين. كما وعد أنه إذا أعطيت له الموصل، فسيستولي على القدس والقسطنطينية والكرج وأراضي الموحدين في المغرب، حتى تصبح كلمة الله هي العليا وتطهّر الخلافة العباسية العالم وتتحوّل الكنائس إلى مساجد. وأكد صلاح الدين أن كل هذا من الممكن أن يحدث بمشيئة الله، وبدلاً من طلب الدعم المالي أو العسكري من الخليفة، قال أنه سيغزو أراضي تكريت وداقوقوخوزستان وجزيرة كيش وعمان، وسيعطيها للخليفة.

## الحروب ضد الصليبيين

بعد أن نجح صلاح الدين في أن يجمع مصر وسوريا والحجاز وتهامة والعراق في دولة إسلامية موحدة قوية تحيط بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب، واطمأن إلى وحدتها وتماسكها، انتقل إلى تحقيق القسم الثاني من مخططه السياسي، وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد، وجاءَته الفرصة حين تعرّض أرناط آل شاتيون صاحبالكرك لقافلة غزيرة الأموال كثيرة الرجال فأخذهم عن آخرهم ونهب أموالهم ودوابهم وسلاحهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويُقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال، فلما رفض أرسل صلاح الدين، الذي كان آنئذ في دمشق، إلى جميع الأطراف

باستدعاء العساكر لحرب أرناط، وتوجه بنفسه إلى بصرى، ومنها إلى الأردن ونزل بثغر الأقحوان.

في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٧٩ هـ الموافق فيه ٢٩ سبتمبر سنة ١١٨٣م، عبر صلاح الدين نهر الأردن لمهاجمة بيسان التي وجدها خاوية. وفي اليوم التالي، أضرمت قواته النار في البلدة، وساروا غربًا، ليعترضوا تعزيزات الصليبيين من حصني الكرك والشوبك على طول طريق نابلس وأسروا عددًا منهم. وفي تلك الأثناء، كانت قوة الصليبيين الرئيسية بقيادة غي آل لوزنيان، قرين ملكة القدس سيبيلا أخت بلدوين، قد تحركت من صفورية إلى العفولة. أرسل صلاح الدين الأيوبي ٥٠٠ مقاتل لمناوشة قوات الصليبيين، وسار بنفسه إلى عين جالوت. وعندما تقدمت القوات الصليبية، والتي كانت أكبر قوة جمعتها المملكة من مواردها الخاصة، ولكنها كانت لا تزال أقل من قوات المسلمين، تراجع الأيوبيون بشكل غير متوقع إلى عين جالوت. رغم وجود بضع الغارات الأيوبية، بما في ذلك الهجمات على زرعين والطيبة وجبل طابور، لم يشارك الصليبيون بكامل قواتهم في معركة العفولة، التي قاد فيها صلاح الدين رجاله عبر النهر منسحبًا ببطء.

ومع ذلك، أثارت المزيد من الهجمات الصليبية غضب صلاح الدين الأيوبي. فقد استمر أرناط آل شاتيون يهاجم القوافل التجارية العائدة للمسلمين وطرق الحج بأسطول في البحر الأحمر، وهو الممر المائي الذي كان من اللازم لصلاح الدين بقائه مفتوحًا. وردًا على ذلك، بنى صلاح الدين أسطولاً من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت في عام ١١٨٢م. هدد رينالد بمهاجمة مدن المسلمين المقدسة مكة والمدينة المنورة، وهو ما رد عليه صلاح الدين بمحاصرة الكرك قلعة أرناط الحصينة مرتين، عامي ١١٨٣ و١١٨٤، فردّ رينالد بنهب قافلة حجيج عام ١١٨٥، ووفقًا لمؤرخالقرن الثالث عشر الإفرنجي وليم الصوري، فقد قبض أرناط على أخت صلاح الدين في تلك الغارة على القافلة، وهو ما لم تثبته المصادر المعاصرة، سواءً الإسلامية أو الأوروبية، وذكرت بدلاً من ذلك أن أرناط هاجم القافلة، وأن جند صلاح الدين حموا شقيقته وابنها حتى وصلوا دون أي ضرر.

بعد أن استعصى حصن الكرك المنيع على صلاح الدين أدار وجهه وجهة أخرى وعاود مهاجمة عز الدين مسعود بن مودود الزنكي في نواحي الموصل التي كان قد بدأت جهوده في ضمها سنة ١١٨٢م، إلا أن تحالف عز الدين مع حاكم أذربيجانومملكة جبال، والذي أرسل جنوده عبر جبال زاغروس عام ١١٨٥م، جعل صلاح الدين يتردد في هجومه. وحينما علم المدافعون عن الموصل، بأن تعزيزات في طريقها إليهم، ارتفعت معنوياتهم وزادوا من جهودهم، وقد تزامن ذلك مع مرض صلاح الدين، لذا ففي شهر مارس من سنة ١١٨٦م، تم التوقيع على معاهدة سلام.

## معركة حطين

كان المرض قد اشتد على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع، في سنة ١١٨٥م وما لبث أن توفي في ذلك العام بعد أن سمّى ابن شقيقته بلدوين الخامس خلفًا له، لكن الأخير ما لبث أن توفي خلال سنة، فتولّت العرش والدته سيبيلا، التي ما لبثت أن تزوّجت زوجها الثاني غي آل لوزينيان ملكًا، وكان الأخير قد خُطط له أن يكون وصي العرش بعد بلدوين الرابع، لكن تحالفه معأرناط وخرقهما للهدنة مع صلاح الدين ومهاجمتهما لقوافل المسلمين التجارية وقوافل الحجاج، الأمر الذي جعل صلاح الدين يُحاصر الكرك، جعلت بلدوين الرابع يعدل عن تسميته خلفًا له بعد مماته. وعندما تولّى غي عرش بيت المقدس ظهرت الانشقاقات بين الصليبين وتوسعت، فلم يكن عدد من الأمراء راضيًا عن توليه، ومن هؤلاء ريموند الثالث «القمص»صاحب طرابلس، الذي دفعه غيظه إلى مراسلة صلاح الدين ومصادقته واتفق معه ألا يحاربه ولا يرفع عليه سيف، فقال له: «أنني أملك طبريا أنزل عليها وأستولي عليها وأنا أتركها لك فتقوى بها على الفرنجة وتضعف قلوبهم». فذهب صلاح الدين ونزل قريبًا من طبريا فسلمها له صاحب طرابلس، وسمع ملك الفرنجة المتوج حديثًا ما حدث، فحشد العامة في البلاد مع عساكر الساحل وسار للقاء صلاح الدين، وانضم إليه صاحب طرابلس ليتستر على فعله.

في يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ، الموافق فيه ٥ يوليو سنة ١١٨٧م، نزل الصليبيون قرون حطين، وكان صلاح الدين قد سبقهم إلى هناك وتمركز جيشه في المنطقة العليا منها حيث نبع المياه، وكانت تجهيزات الفرنجة الحربية الثقيلة هي سبب تأخرهم في الوصول، ولمّا حصل ووصلوا إلى الموقع كانوا هالكين من العطش لدرجة أنهم شربوا الخمر بدلاً من الماء فسكر منهم الكثير، وهاجموا جيش صلاح الدين فقُتل من الفريقين عدد من الجنود، وكان الصليبيون متحمسين في البداية للحصول على الماء فهزموا المسلمين في أول النهار ولكن دارت الدوائر في آخر النهار، فإنقض الأيوبيون على الجيش الصليبي ومزقوا صفوفه، واستمرت المعركة ساعات طويلة، وما أن انقشع غبارها حتى تبيّن مدى الكارثة التي لحقت بالصليبيين، فقد خسروا زهرة شباب جنودهم، وقُتل العديد من الفرسان والضبّاط المخضرمين، ووقع الملك غي آل لوزينيانوأخوه وأرناط صاحب الكرك وغيرهم من كبار الصليبيين بالأسر. أما ريموند الثالث صاحب طرابلس، فقد تظاهر بالهجوم على المسلمين، فمر بين صفوفهم وذهب ولم يرجع كأنه أنهزم، واتجه إلى مدينة صور ومكث بها.

بعد هذا النصر جلس صلاح الدين في خيمته، وأمر بإحضار الملك غي وأخوه وأرناط، فلمّا مثلوا أمامه قدّم للملك شربة منجلاّب وثلج، فشربها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها لأرناط، فقال صلاح الدين للترجمان: «إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي»،[١٤٠] وذلك كون العادة السائدة كانت أنه لو شرب الأسير أو أكل من مال من أسرة أمن، وكان صلاح الدين قد نذر أنه لو ظفر بأرناط قتله بعد أن قتل من المسلمين خلقًا كثيرًا.

بعد ذلك أمر صلاح الدين بإحضار بعض الطعام للملك غي، وما أن انتهى حتى أمر بإحضار أرناط، وأوقفه بين يديه ثم قال له: «نعم أنا أنوب عن رسول الله في الانتصار لأمته»،[١٤٠] ودعاه إلى اعتناق الإسلام، فرفض وقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي محمد، فسلّ صلاح الدين سيفه ودق عنق أرناط، وأمسكه الجنود وأخرجوا جثته ورموها على باب الخيمة

ثم استدعى خادمه وسأله أن يحضر شراب فجاء به فأخذه بيده وشرب منه وناوله للملك

فشربه وأعطى له ولأصحابه خيمة وجعل عليها حراسًا لحراسته واحتفظ به، وأرسله إلى دمشقأسيرًا، يرافقه القاضي ابن أبي عصرون، حتى تنتهي الحرب وتُفتتح القدس، وأرسل معه أيضًا صليب الصلبوت، وهو الصليب الأعظم عند الصليبيين والذي قيل بأن فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح، وكان يُغلّف بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، وكان يتقدم الجيش الصليبي على الدوام، وحملوه معهم يوم حطين، وأودع في قلعة دمشق عند وصوله.

## تحرير الساحل الشامي

رأى صلاح الدين ألا يتوجه مباشرة لفتح القدس بعد انتصار حطين، وإنما رأى أنه من الأسلم أن يسير لفتح مدن الساحل ومن ثم الهجوم على القدس، فرحل طالبًا عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء، وقاتل الصليبيين بها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ فأخذها وأنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، وكانوا أكثر من ٤ آلاف شخص، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع كونها كانت المرفأ التجاري الرئيسي للصليبيين ونافذتهم على وطنهم الأم في أوروبا. ثم تفرقت الجنود الأيوبية في الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، ففتحوا نابلس وحيفا والناصرة وقيساريةوصفورية بعد أن خلا معظمها من الرجال إما لمصرعهم على أرض المعركة أو لوقوعهم في الأسر أو لهربهم من أمام الجيش الأيوبي بعد أن قل عددهم.

ولّما استقرت قواعد عكا، قسّم صلاح الدين أموالها بين أهلها، وأبقى بعض القادة الصليبيين في الأسر وأطلق سراح بعض الجنود، ثم سار يطلب قلعة تبنين، فوصلها يوم الأحد في ١١ جمادى الأولى من نفس السنة، فنصب عليها المناجيق وضيّق عليها الحصار، وقاومت حاميتها مقاومة عنيفة قبل أن تستسلم ويدخلها الجيش الأيوبي، ثم ارتحل بعد ذلك قاصدًا صيدا وتسلمها في اليوم التالي لوصوله.

وفي أثناء توجه صلاح الدين لفتح بيروت في سنة ١١٨٧م، لقيه الأمير جمال الدين حجي التنوخي في بلدة خلدة وسار معه لحصار المدينة، فضرب الإثنان عليها الحصار ودخلوها بعد

٧ أيام، وكافأ صلاح الدين الأمير التنوخي على ولائه له وثبته على إقطاعات آبائه وأجداده وزاد عليها حتى شملت منطقة الغرب كلها، الممتدة من جنوبي بيروت حتى أعالي جبل لبنان، وكذلك فعل مع الأمراء الشهابيين في سهل البقاع، فقد كان هؤلاء يقاتلون الصليبيين طيلة فترة من الزمن انتهت باستيلائهم على حاصبيا وما حولها، فسُرّ صلاح الدين بذلك وولّى الأمير منقذ الشهابي على البلاد التي فتحها.

وفي أثناء حصار صلاح الدين لبيروت، كانت فرقة عسكرية أيوبية قد استرجعت جبيل من أيدي الصليبيين، ولمّا فرغ من هذا الجانب رأى أن قصده عسقلان أولى لأن حصارها وفتحها أيسر من حصار صور، فأتى عسقلان وتسلّم في طريقه إليها مواقع كثيرة كالرملة والدراوم، وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديدًا حتى استسلمت حاميتها، وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال، وهكذا كان صلاح الدين قد استرجع أغلب ساحل الشام، ولم يصمد في وجهه غير مدينتيّ طرابلس وصور وقسمًا من إمارة أنطاكية.[١٤٤]

## فتح القدس

ظل صلاح الدين في عسقلان حتى نظم إدارتها وسلمها إلى أحد مماليكه واسمه علم الدين قيصر، وأعطاه ولاية عسقلان والقطاع الذي حولها ورحل منها وتوجه إلى القدس لفتحها، ووصلها يوم الخميس في ١١ رجب سنة ٥٨٣ هـ الموافق فيه ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م، من جهة عين سلوان حتى يكون الماء قريب من جيشه وأمر جنده بمحاصرة المدينة في هيئة دائرية، وصلى المسلمين على الجبل الذي حولها يوم الجمعة، وزحفوا للقتال بعد الصلاة، ولم يكن في المدينة المقدسة قوة كبيرة لحمايتها من الهجوم الأيوبي، حيث لم يزيد عدد الجنود عن ١٤٠٠ جندي، أما الباقون فكانوا من الفقراء والأهالي الذين لا خبرة لديهم في القتال وكان باليان بن بارزان فارس من فرسان الفرنجة الكبار يسكن مدينة القدس ويتولى شؤونها منذ أن غادرها الملك غي، وكان باليان هذا هو صاحب مدينة الرملة، وقاد القتال في ذلك اليوم وانضم إليه

الكهنة والشمامسة، وكان ماهرًا في إدارة القتال وتوجيه المقاتلين أمام قوات صلاح الدين، وكان خوفه الأكبر أن يقتل المسلمين كل مسيحيي القدس عند دخولهم كما فعل الصليبيون عندما فتحوا المدينة قبل ما يزيد عن قرن من الزمن، فحث السكان أن يدافعوا عن حياتهم ومقدساتهم حتى الرمق الأخير، وعندما أرسل له صلاح الدين أن يسلم المدينة ويطلب الأمان لم يفعل، وأصر على القتال واستمر في الحرب لمدة ١٤ يومًا.

ولما رأى صلاح الدين أن الحرب ستكون شديدة ولم يقدر على احتلال مدينة القدس، أحضر يوسف البطيط، وهو رجل مسيحي أرثوذكسي مقدسي، انتقل إلى مدينة دمشق وسكن فيها وكان له معرفة بأمراء مسلمين وفرنجة، وكان ممن يعرفهم صلاح الدين، وكان يعرف كذلك أبوه وعمه أسد الدين شيركوه وهم بدمشق في خدمة نور الدين زنكي قبل أن يحكموامصر، ولما ملك صلاح الدين مصر وحكمها، جاء إليهم ليعمل معهم فاستخدمه الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين وأعطاه عطايا، وسكنًا في قصر الخليفة في قاعة باب الذهب في القصر الشرقي بالقاهرة، واستخدمه صلاح الدين لمراسلة الفرنجة، وكان يعرف أحوال البلاد وأهلها كما كان يعرف كبار فرسان تلك البلاد، فطلب منه أن يتفق مع المسيحيين الأرثوذكس من عرب وروم يوعدهم بالخير والعفو عنهم إذا لم يساعدوا الفرنجة في القتال وأن يسلموا المدينة لصلاح الدين من الجهة التي يسكنون بها في القدس فيُهلكوا الفرنجة، الذين رفض صلاح الدين أن يعفي عنهم بحال فتح المدينة، حتى هدد باليان بقتل الرهائن المسلمين، والذين يُقدّر عددهم بأربعة الآف مسلم، وتدمير الأماكن الإسلامية المقدسة، أي قبة الصخرة والمسجد القبلي، اللذان يُشكلان المسجد الأقصى، إذا لم يعف صلاح الدين عنهم.

استشار صلاح الدين الأيوبي مجلسه وقبل هذه الشروط، على أن يتم دفع فدية على كل من فيها مقدارها عشرة دنانير من كل رجل وخمسه دنانير من كل امرأة وديناريين عن كل صبي وكل صبية لم يبلغ سن الرشد، فمن أدى ما عليه في المهلة التي قدرها أربعين يومًا، صار حرًا.

ثم سمح صلاح الدين بعد أن انقضت المهلة لمن لم يستطع الدفع منهم بالمغادرة دون فدية، ولكن تم بيع معظم المقاتلة منهم عبيدًا.

دخل صلاح الدين المدينة في ليلة المعراج يوم ٢٧ رجب سنة٥٨٣ هـ الموافق فيه ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م، وسمح لليهود بالعودة للمدينة، وهو ما دفع سكان عسقلان من اليهود لاستيطان القدس. وأغلق صلاح الدين كنيسة القيامة بوجه الفرنجة بعد فتح المدينة، وأمر بترميم المحراب العمري القديم وحمل منبر مليح من حلب كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد أمر بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى متى فُتح بيت المقدس، فأمر صلاح الدين بحمله من حلب ونُصب بالمسجد الأقصى، وأزيل ما هناك من آثار مسيحية منها الصليب الذي رفعه الإفرنج على قبة المسجد، وغُسلت الصخرة المقدسة بعدة أحمال ماء ورد وبُخّرت وفُرشت ورُتّب في المسجد من يقوم بوظائفه وجُعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، ثم أعاد صلاح الدين فتح الكنيسة وقرر على من يرد إليها من الفرنج ضريبة يؤديها.

## حصار صور وعكا

كان معظم أمراء الفرنجة وفرسانها يذهبون إلى المدن الحصينة التي ما زالت في أيديهم مثل أنطاكية وصور، وكانت الأخيرة يحكمها ملك من ملوك أوروبا هو كونراد مركيز مونفيراتو، ويقول البعض أنه رومي ابن اخت إمبراطور القسطنطينية. وكانت صور أكثر أهمية من الناحية الإستراتيجية من القدس، لذا كان من المتوقع أن يقوم صلاح الدين بفتحها أولاً، لكنه فضّل استرجاع المدينة المقدسة أولاً ليرفع من معنويات المسلمين قبل التوجه لحصار المدينة المحصنة. وقبل حصار صور توجّه صلاح الدين بجيشه إلى قلعة صفد وحاصرها سبعة شهور، ولمّا نفذ الطعام وجاعت الحامية اضطروا أن يسلموا القلعة له وطلب الأمان، وعندما غادرها جنود الفرنجة وفرسانهم ذهبوا إلى صور وكانت كل قلعة أو حصن أو مدينة تطلب الأمان ويسلمونها إلى صلاح الدين، كان الفرنجة يغادرونها إلى صور فقويت بوجود فرسان الفرنجة فيها، فصمدت في وجه صلاح الدين سنة كاملة، أضف إلى ذلك أن المركيز ظلّ يقوّي ويحمي ويدبر احتياجات المدينة طيلة أيام الحصار، حتى دبّ اليأس إلى فؤاد السلطان، ففك الحصار عنها مؤجلاً تحقيق الفتح إلى فرصة قادمة. وفي سنة ١١٨٨ م أطلق صلاح الدين سراح الملك

غي آل لوزينيان وأعاده إلى زوجته سيبيلا، فذهبا ليعيشا في طرابلس، ثم توجها إلى أنطاكية، قبل أن يُقررا الذهاب إلى صور، لكن كونراد رفض السماح لهما بالدخول إلى المدينة كونه لم يعترف بشرعيّة ملكيّة غي.

وبعد أن انصرف صلاح الدين عن صفد واصل فتح المدن والقلاع ففتح جبلة واللاذقية وحصون صهيون وبكاس والشغر وسرمينية وبرزية ودرب ساك والكرك وكوكب، كما سعيبوهمند الثالث صاحب أنطاكية لمهادنة صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر، فقبل صلاح الدين ذلك على أن يطلق بوهمند من عنده من أسرى المسلمين.

لما ضجت صور بمن لجأ إليها من الفرنجة، قام بعض رهبانهم وقسسهم بشحن الفرنجة للثأر لفقدان بيت المقدس، فرأوا أن يهاجموا عكا، فجمعوا قواتهم وضربوا عليها حصارًا بريًا بحريًا في ١٥ رجب ٥٨٥ هـالموافق ٢٨ أغسطس ١١٨٩م.

استنجدت حامية المدينة بصلاح الدين فأرسل إلى عماله وحلفاؤه يطالبهم بالاسراع إلى نجدة المدينة، فوافاه عسكر الموصل وآمد وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وحران والرُّها، كما وافاه أخاه الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جند مصر والأسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ، فدارت بين الفريقين معارك عظيمة لم يكتب فيها الغلبة لأي من الفريقين.

## الحملة الصليبية الثالثة

كانت معركة حطين وفتح القدس سببين رئيسيين لخروج الحملة الصليبية الثالثة، حيث حثّ البابا غريغوري الثامن ملوك أوروبا على شن حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس، فكان أول من لبى النداء الإمبراطور الألماني فريدريش بربروسا الإمبراطور الروماني المقدس الذي سار بجيشه برًا عبر المجر ورومانيا حتى بلغ القسطنطينية، والتي كان إمبراطورها إسحق الثاني قد تحالف سرًا مع صلاح الدين، ألاّ يسمح أحدهما لأي قوّات بتهديد أراضي الآخر، إلا أنه لم يقوى على منع قوات فريدريش لكثرة عددهم، لكنه لم يسمح بتزويدهم بالمؤن. راسل

فريدريش أبناء سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني وقد كانوا قد حجروا على أبيهم، للمرور من خلال أراضيهم، فسمحوا له، وأرسل قلج أرسلان الثاني يعتذر لصلاح الدين على عدم قدرته على منع الألمان من المرور من أراضيه، فبلغت الرسل صلاح الدين وهو يحاصر عكا.

رغم ذلك، فقد فشلت حملة فريدريش في الوصول إلى الشرق، لطول المسافة وحلول الشتاء على الجيش المرتحل ومقاومة بعض أمراء المناطق التي مرت بها الحملة للجيش الغازي وقلة المؤن، خاصة بعد امتناع إسحق الثاني إمبراطور الروم عن إمدادهم بالمؤن، إضافة إلى غرق فريدريش بربروسا نفسه في أحد الأنهار بالقرب من أنطاكية، والخلافات التي تبعت وفاته على من يخلفه، وقد أثارت أنباء فشل حملة بربروسا الغبطة في المعسكر المسلم المدافع عن عكا.

لم تتوقف الحملة عند ذلك، بل تصدى لتلك الحملة أيضًا ملكان من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الوقت هما ريتشارد الأول «قلب الأسد» ملك إنكلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا، اللذان مُوِّلاها بفرض ضريبة خاصة عُرفت بعشور صلاح الدين(بالإنكليزية: Saladin tithe؛ وبالفرنسية: Dîme saladine) في إنكلترا وأجزاء من فرنسا، وانضما إلى حصار عكا، التي سقطت في عام ٥٨٧ هـ الموافق لعام ١١٩١ م، أمام القوات التي يقودها ريتشارد، وأُعدم فيها ثلاثة آلاف سجين مسلم منهم نساء وأطفال.[١٥٥][١٥٦] ردّ صلاح الدين بقتل كل الفرنجة الذين أسرهم بين ٢٨ أغسطس و ١٠ سبتمبر، وقد كتب بهاء الدين بن شداد «وبينما كنا هناك أحضروا اثنين من الفرنجة الذين تم أسرهم إلى السلطان صلاح الدين، وعلى الفور أمر بقطع رؤوسهم.»

وفي ١٥ شعبان سنة ٥٨٧ هـ الموافق فيه ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ م، اشتبكت جيوش صلاح الدين مع جيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد في معركة أرسوف التي انهزم فيها صلاح الدين،[١٥٨] إلا أن الصليبيين لم يتمكنوا من التوغل في الداخل وبقوا على الساحل، وبقيت الحرب سجال بين الفريقين، وفشلت كل محاولات الفرنجة لغزو القدس.

لجأ الفريقان بعد ذلك إلى الصلح، وعقدت هدنة في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ الموافق فيه

١ سبتمبر سنة ١١٩٢م، لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر تبدأ من ذاك التاريخ، بعد أن أجهدت الحرب الفريقين، التي بموجبها تنحصر مملكة بيت المقدس الصليبية في شريط ساحلي ما بين يافا وصور، وتظل القدس في أيدي المسلمين مع السماح للمسيحيين بالحج إليها.

ومع ذلك، كانت علاقة صلاح الدين مع ريتشارد يسودها الاحترام المتبادل والشهامة بعيدًا عن التنافس العسكري، فعندما أصيب ريتشارد بالحمى، عرض صلاح الدين الأيوبي عليه خدمات طبيبه الشخصي، وأرسل إليه فاكهة مثلجة. وفي أرسوف، عندما فقد ريتشارد جواده، أرسل إليه صلاح الدين الأيوبي اثنين محله. كما عرض ريتشارد على صلاح الدين فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيون والمسلمين عن طريق تزويج أخت ريتشارد الأول بأخو صلاح الدين وأن تكون القدس هدية زفافهما، على أن يكون ما فتحه المسلمون تحت حكم العادل وما بيد الفرنجة تحت حكم أخت ريتشارد، إلا أن الأمر لم يتم. إلا أن الرجلين لم يلتقيا أبدًا وجهًا لوجه وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

ولما تم الصلح سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وحصّن أسوارها، وأدخل كنيسة صهيون داخل أسوارها، وبنى فيها مدرسة ورباطًا للخيل وبيمارستان، وغير ذلك من المصالح، وقضى بالمدينة شهر رمضان من سنة ٥٨٨ هـ، ثم تركها في ٥ شوال متوجهًا إلى دمشق حيث قضى آخر أيامه.

## وفاته

كانت المواجهة مع الملك ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ أنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مرض صلاح الدين بالحمى الصفراوية يوم السبت في ٢٠ فبراير سنة ١١٩٣م، الموافق فيه ١٦ صفر سنة ٥٨٩ هـ، وأصابه أرق فلم ينم الليل إلا قليلاً، وأخذ المرض يشتد ويزيد، حتى قال طبيبه الخاص، أن أجل السلطان أصبح قاب قوسين أو أدنى، واستمر المرض يشتد حتى انتهى إلى غاية الضعف، وبعد تسعة أيام حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب، ولمّا كان اليوم العاشر حُقن دفعتين، وحصل له من الحقن بعض

الراحة، لكنه عاد واشتد عليه المرض حتى يأس الأطباء من حاله. توفي صلاح الدين فجر يوم الأربعاء في ٤ مارس سنة ١١٩٣ م، الموافق فيه ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ، فأفجع موته المسلمين عمومًا والدمشقيين خصوصًا، وبكاه الكثيرون عند تشييعه وقيل إن العاقل حتى كان ليُخيل له أن الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا من شدة البكاء، وغشي الناس ما شغلهم عن الصلاة عليه، وتأسف الناس عليه حتى الفرنج لما كان من صدق وفائه، ودُفن بعد صلاة عصر ذلك اليوم فيالمدرسة العزيزية قرب المسجد الأموي في دمشق، إلى جوار الملك نور الدين زنكي، وعندما فُتحت خزانته الشخصية لم يكن فيها ما يكفي من المال لجنازته، فلم يكن فيها سوى سبعة وأربعين درهمًا ناصريًا ودينارًا واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات.

في ساعة موته، كتب القاضي الفاضل، قاضي دمشق، إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب رسالة قال فيها: «﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ كتبت إلى مولانا الملك الظاهر أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديدًا، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعًا لا تلاقي بعده وقبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله وحده مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضيًا عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعمدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما يرد القضاء، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا، فما تحتاج إليها، والأراء، فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر، فإنه إن وقع اتفاق، فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك، فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

وكان ڤيلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا عندما زار دمشق توجه إلى مدفن صلاح الدين ووضع باقة زهور جنائزية على قبره عليها نقش معناه «ملك بلا خوف ولا ملامة، علّم خصومه الفروسية الحقيقية»،[١٦٢] كما أهدى نعشًا رخاميًا للضريح إلا أن جثمان صلاح الدين لم

يُنقل إليه، وبقي في النعش الخشبي، وذلك لأن الإسلام يُحّرم نبش القبور وإخراج الأموات لأغراض غير شرعيّة ويُصنّف ذلك انتهاكًا لحرمة القبر، لهذا بقي النعش الهدية في الضريح خاويًا إلى اليوم.

## الدولة الأيوبيّة بعد صلاح الدين

قسّم صلاح الدين دولته قبل وفاته بين أولاده وأفراد من عائلته، فجعل إمارة دمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، وأوصى له بالسلطنة، وجعل الديار المصرية لولدهالعزيز عثمان، وإمارة حلب لولده الظاهر غازي غياث الدين، وترك الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدانًا كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل، وحماة لابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر،وحمص والرحبة وغيرها لحفيد عمه شيركوه، أسد الدين شيركوه بن ناصر، واليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين.

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين أولاد صلاح الدين، مما جعل عمهم العادل يعزلهم ويقوم بتوحيد البيت الأيوبي تحت رايته. وكما فعل صلاح الدين من قبل، فعل أخوه الملك العادل، فقسّم أراضي دولته بين أبنائه وهو على قيد الحياة، ولكن هؤلاء الإخوة لم يكونوا على وفاق بعد وفاة أبيهم، فكانوا يُحاربون بعضهم بعضًا، بالرغم من أن الصليبيين كانوا يفيدون من هذا الخلاف، وبعدهم جاء أولادهم، فلم يكونوا خيرًا من آبائهم في صلاتهم فيما بينهم وبين أبناء عمهم، ولكن واحدًا منهم استطاع أن يلمع في ظلام هذا الخلاف، ذلك هو «الصالح أيوب»، حفيد الملك العادل، الذي أعاد توحيد دولة صلاح الدين تحت سلطانه. ولّما مات الصالح أيوب تولّى ابنه توران شاه السلطنة، لكن مماليكه ائتمروا به وقتلوه، ثمّ نصبوا زوجة أبيه «شجرة الدر» سلطانة عليهم، وبهذا زالت الدولة الأيوبيّة في مصر وقامت مكانها دولة المماليك.

## أسرته

وفقًا لعماد الدين الأصفهاني، فقد أنجب صلاح الدين الأيوبي خمسة أبناء قبل مغادرته مصر في عام ١١٧٤م. ابنه الأكبر الأفضل وُلد في عام ١١٧٠م وأنجبت له زوجته شمسة التي اصطحبها معه إلى الشام ولده عثمان، وُلد في عام ١١٧٢م في مصر، ثم أنجبت طفلاً آخر في عام ١١٧٧م. بينما ذكر أبو العباس القلقشندي، أن ولده الثاني عشر وُلد في مايو سنة ١١٧٨م، بينما ذكر الأصفهاني، أن هذا الطفل كان ابن صلاح الدين السابع. كما وُلد له مسعود في عام ١١٧٥م ويعقوب في عام١١٧٦م، وهذا الأخير من زوجته شمسة. تزوج صلاح الدين من أرملة نور الدين زنكي عصمة الدين خاتون في سبتمبر سنة ١١٧٦م، وانجبت له إحدى زوجاته غازي وداود في عامي ١١٧٣م و١١٧٨م على التوالي، وأنجبت له أخرى إسحق في عام ١١٧٤م وولدًا آخر في شهر يوليو من سنة ١١٨٢م.

## الصالح أيوب

الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب لقب بـ أبي الفتوح، (ولد بالقاهرة ١٢٠٥م / ٦٠٣ هـ ـ توفى بـالمنصورة ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م / ٦٤٧ هـ). سابع سلاطين بني أيوب بمصر، حكم من ١٢٤٠م إلى ١٢٤٩م. أنشأ المماليك البحرية بمصر، ودخل في صراعات مع الملوك الأيوبيين في الشام، وفي آخر سنة من حكمه تعرضت مصر لحملة صليبية ضخمة عرفت بـالحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. توفي الصالح أيوب أثناء احتلال الفرنج لدمياط وخلفته أرملته شجرة الدر التي تحملت بجسارة عبء الدفاع عن مصر.

ويعد عصر الصالح أيوب من أهم عصور المنطقة العربية حيث شهد توغل المغول في الأراض الإسلامية من الشرق والهجمات الصليبية من الغرب، وزوال الدولة الخوارزمية، وصراعات داخلية خطيرة بين ملوك بني أيوب والتي انتهت، مع وفاة الصالح أيوب، ببزوغ نجم المماليك وتكوين دولتهم التي لعبت أدواراً حاسمة في تاريخ الشرق الأدنى.

## أصله وأحداث ما قبل سلطنته

كان الصالح أيوب ابناً للسلطان الأيوبي الملك الكامل محمد، أمه جارية سوداء اسمها ورد المنى ، وأخاً للسلطان العادل سيف الدين أبي بكر وحفيداً للسلطان الملك العادل أخو السلطانصلاح الدين الأيوبي. وكان والده الملك الكامل قد استقل بمصر في عام ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، بعد وفاة والده الملك العادل الذي كان قد قسم مملكته بين أولاده قبل وفاته وأعطى مصر للملك الكامل.

والملك الكامل هو من أكمل بناء قلعة الجبل التي بدأ في تشييدها عمه صلاح الدين الأيوبي وكان الكامل أول من سكن قلعة الجبل من ملوك مصر وفيها ولد الصالح أيوب في سنة ١٢٠٥م/ ٦٠٣هـ.

## الحملة الصليبية الخامسة

في سنة ١٢١٨م/ ٦١٥هـ عندما كان الصالح أيوب طفلاً في الثانية عشرة من عمره، تعرضت مصر لحملة صليبية يقودها « جان دي بريين « ملك بيت المقدس (الحملة الصليبية الخامسة). وكان ذلك تطورا خطيراً في الحروب الصليبية إذ أن مصر منذ ذلك الحين أصبحت هدفاً للصليبيين الذين أدركوا أن مصر بإمكانياتها البشرية والاقتصادية هي حصن الإسلام ومصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والسلاح، إن استولوا عليها سهل عليهم استعادة بيت المقدس وامتلاك الشام.

تجمعت جيوش ممالك أوروبا في عكا ومنها أبحرت إلى مصر ونزلت بالبر الغربي من دمياط، وخرج الملك الكامل، والد الصالح أيوب، بالجيش إلى دمياط لمواجهة الصليبيين. إلا أن القوات الصليبية نجحت في الاستيلاء على برج دمياط، ولما سمع السلطان العادل (والد الملك الكامل وجد الصالح أيوب) بما حدث، وكان وقتها مقيماً ببرج الصفر في الشام، دق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض ومات بعد بضعة أيام. بموت العادل خلص ملك

مصر للملك الكامل محمد ووقع عليه عبء الدفاع عن مصر. بعد حصار دام نحو ستة عشر شهراً سقطت دمياط في أيدي الصليبيين فقتلوا سكانها وحولوا جامعها إلى كنيسة. ولما حاول الصليبيون التقدم داخل الأراضي المصرية حاصرهم المسلمون من كل الجهات حتى لحقت بهم الهزيمة فطلبوا الأمان مقابل رحيلهم عن دمياط. وسلمت دمياط للمسلمين في ٨ سبتمبر ١٢٢١م/ ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ، ودخلها الملك الكامل على رأس أخوته وقواده وأجناده. وعقدت هدنة مداها ثمانية أعوام بين المسلمين والصليبيين.

## الحملة الصليبية السادسة ومعاهدة السلام

في سنة ١٢٢٧م/ ٦٢٤هـ ساءت العلاقات بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وبين أخويه الملك الكامل محمد والملك الاشرف موسى. وطلب الملك المعظم مساعدة جلال الدين خوارزم شاه ملك دولة الخوارزمية ضد أخويه، فسعى الملك الكامل إلى إقامة حلف مع فردريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك صقلية لمواجهة تهديد أخيه المتحالف مع الخوارزمية في الشرق، ولأنه من جهة ثانية كان يدرك صعوبة موقفه في حالة مهاجمة البلاد عن طريق حملة صليبية جديدة بينما هناك نزاع قائم بينه وبين أخيه الذي ساعده خلال الحملة الصليبية الخامسة. في سنة ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ خرج فردريك الثاني على رأس حملة صليبية صغيرة قوامها ٦٠٠ فارس فقط ـ مما يوضح أنه لم يكن يجهز لحرب حقيقية ـ ونزل عكا (الحملة الصليبية السادسة)، فأرسل إليه الملك الكامل رسوله فخر الدين يوسف بن الشيخ للتفاوض على عقد معاهدة بينهما.

في ١٨ فبراير ١٢٢٩م تم توقيع معاهدة سلام مدتها عشر سنوات تقضي بتسليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة لفردريك بشرط ألا يقيم الصليبيون في بيت المقدس حصوناً أو قلاعاً، وأن تبقى منطقة المسجد الأقصيفي أيدي المسلمين، وأن يتعهد فردريك بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه حتى ولو كانوا صليبيين، وأن يضمن فردريك عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين أنطاكية وطرابس. وفي ١٧ مارس ١٢٢٩م دخل فردريك

الثاني بيت المقدس في حماية قواته الألمانية والإيطالية، وسلمه شمس الدين قاضي نابلس مفتاح المدينة نيابة عن السلطان الكامل. وثارت ثائرة كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء. وراح الواعظ والمؤرخ سبط بن الجوزي يشهر بالملك الكامل في دمشق، ورفض الصليبيون التعاون مع فردريك باعتباره مسالماً للمسلمين، وخارجاً عن الكنيسة الكاثوليكية ومحروماً منها عن طريق جريجوري التاسع بابا الكنيسة الكاثوليكية.

## زوال الدولة الخوارزمية ووفاة السلطان الكامل

بينما تلك الأحداث تجري في مصر كان المغول يتقدمون نحو حدود العالم الإسلامي الشرقية، وبحلول سنة ١٢٢٨م/ ٦٢٥هـ كان المغول قد دخلوا أراض الدولة الخوارزمية ـ الجبهة الأولى للعالم الإسلامي ـ ويتقاتلون في معارك دموية طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزم شاه، بتحريض من الخليفة العباسي في بغداد أبو العباس أحمد الناصر لدين الله الذي استعان بالمغول ضد السلطان خوارزمشاه وأغراهم به، وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن إنهزم جلال الدين بالكامل في سنة ١٢٣٠م/ ٦٢٨هـ وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية وتمزقوا كل ممزق وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة. وفتحت الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي على مصراعيها أمام جحافل المغول الذين لم يتبق لهم سوى دخول بغداد والتوغل في الأراضي العربية.

في سنة ١٢٣٥م/ ٦٣٣ هـ توجه السلطان الكامل ومعه أخيه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق إلى الشرق وهزما الروم واستولى على حران والسويداء والرها وقطينا، ثم عاد الكامل إلى مصر وسلم جميع بلاد الشرق لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، مما أغضب الأشرف الذي كتب إلى الكامل يقول: « أخذت الشرق مني واعطيته لولدك. وقد افتقرت. وإيش هي دمشق إلا بستان؟ ومالي فيها رزق». فأرسل الكامل إليه عشرة آلاف دينار ولكن الاشرف ردها إليه قائلاً : « أنا أعطي هذا أمير عندي «. واتفق الأشرف مع ملوك حماة وحلب

وغيرها على الانتقام من السلطان الكامل. إلا أن الأشرف مات بعد ذلك بقليل، وتملك دمشق أخيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فترك السلطان الكامل ابنه الملك العادل نائباً عنه في مصر وسار بالأجناد المصرية إلى الشام وحاصر دمشق ودخلها، ثم لحق بالأشرف في ٢١ رجب سنة ٦٣٦ هـ. وبينما تلك الأحداث جارية شن المغول أول هجوم لهم على بغداد سنة ١٢٣٧م/ ٦٣٥هـ ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها.

## صراعات الصالح أيوب مع ملوك بني أيوب

توفى السلطان الكامل تاركاً ابنه العادل في مصر وابنه الصالح أيوب في بلاد الشرق. وكان الصالح أيوب وقت وفاة أبيه ينازل الرحبة للاستيلاء عليها بمساعدة الخوارزمية، بعد أن كان قد استولى على سنجار ونصيبين والخابور، وكانت الرحبة تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فلما علم الخوارزمية بوفاة السلطان الكامل طمعوا في الرحبة وأرداوا أخذها لأنفسهم، فخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه، ففر منهم إلى سنجار، فحاصره هناك الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأراد القبض عليه ونقله إلى بغداد في قفص حديد لشدة كراهيته له، فأرسل الصالح أيوب إلى ابنه المغيث فتح الدين الذي كان هو الآخر قد فر إلى حران خوفاً من الخوارزمية، وطلب منه استمالة الخوارزمية وإحضارهم إلى سنجار. ونجح المغيث وقاضي سنجار بدر الدين في استمالة الخوارزمية بعد أن أكدا لهم أن الصالح أيوب سيمنحهم سنجار وحران والرها، فذهبوا معهما إلى سنجار وفر بدر الدين لؤلؤ بعسكر الموصل. قويت شوكة الصالح أيوب بعودة الخوارزميه إليه وسيرهم إلى آمد لمساعدة ابنه المعظم غياث الدين توران شاه الذي كان محاصراً هناك عن طريق عسكر السلطان كيخسرو صاحب الروم. ونجح الخوارزمية في إبعاد الروم عن آمد وانتقل الصالح أيوب من سنجار إلى حصن كيفا.

## تنصيب العادل سلطاناً وتقسيم الشام

اتفق الأمراء، ومن بينهم عماد الدين إسماعيل والناصر داود، على تنصيب الملك العادل سلطاناً على مصر. أما الشام فقد تقاسمها أخوته وأقاربه من بني أيوب، فصارت دمشق من نصيب الملك الجواد مظفر الدين، وحلب من نصيب الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وحمص من نصيب الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، وحماه من نصيب الملك المظفر تقي الدين محمود، وبعلبك من نصيب الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والكرك من نصيب الملك الناصر داود. ثم اتفق الملك الجواد مع الصالح أيوب على مقايضة دمشق بسنجار وعانة من بلاد الشرق. وكان من أسباب ذلك خوف الملك الجواد من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل. ودخل الصالح أيوب دمشق في الأيام الأولى من شهر جمادي الآخرة سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨م.

## اعتقال الصالح أيوب

في سنة ٦٣٦هـ طلب كبار أمراء مصر من الصالح أيوب الحضور إلى القاهرة لتملك البلاد بدلاً من أخيه الملك العادل. وكان الأمراء لا يحبون الملك العادل لانشغاله في اللهو وتقريبه لرفاقه من صغار السن الذين كان يأخذ بآرائهم في إدارة الدولة ويغدق عليهم بالإقطاعات والأموال. ولما وردت الأخبار بعزم الصالح أيوب المسير إلى القاهرة، خرج من مصر بضعة أمراء بأتباعهم وأجنادهم للانضمام إليه. واستولى الصالح على نابلس والأغوار وأعمال القدس والسواحل، ومنح الامراء المنشقين على الملك العادل نابلس وأعمالها. وانزعج الملك العادل انزعاجاً شديداً وتأهب لمحاربته، وانضم إليه الملك الناصر داود صاحب الكرك. ولكن الخليفة العباسي أرسل رسالة إلى الصالح أيوب يطلب فيها منه أن يتصالح مع أخيه العادل حقناً للدماء، فأجل الصالح ذهابه إلى مصر احتراماً للخليفة.

في سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٧ هـ بينما كان الصالح أيوب في نابلس، هجم الملك الصالح عماد

الدين إسماعيل، عم الصالح أيوب، على دمشق وملكها بالاتفاق مع الملك المجاهد صاحب حمص، والأمير عز الدين صاحب صرخد (جد المؤرخ ابن أيبك الدواداري) واعتقل المغيث بن الصالح أيوب. ولما علم الصالح أيوب أن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل قد خان العهود واستولى على دمشق في غيبته توجه إليها لحماية قلعتها، ولكن بعد أن وصلها علم بأن القلعة قد سقطت في يد الملك الصالح عماد الدين، فقرر العودة إلى نابلس، ولما علم عسكر الصالح أيوب ومماليكه ورفاقه أنه قد فقد دمشق وزال أمره فارقه منهم عدد كبير وذهبوا إلى دمشق، ولم يبق معه سوى بضعة أمراء ونحو الثمانين من مماليكه. واستجار الملك الصالح بإبن عمه الناصر داود صاحب الكرك، فأرسل الناصر داود إليه بعض الأمراء على رأس ثلثمائة فارس بزعم حمايته ولكنهم قبضوا عليه بعد عدة أيام هو وجاريته شجر الدر بعد أن تخلصوا ممن بقي معه من مماليكة عن طريق إرسالهم إلى مكان آخر زعموا أن الصليبيين قد نزلوا فيه.

نقل الصالح أيوب إلى الكرك مع شجر الدر التي كانت قد أنجبت منه في غضون ذلك ابنهما خليل، وحجز الثلاثة هناك في القلعة، ومعهم مملوكه ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي، وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلطن فيما بعد.

باعتقال الصالح أيوب في الكرك اطمئن أخوه السلطان العادل على عرشه في مصر فزينت القاهرة ووزعت الحلوى بتلك المناسبة، وارسل العادل إلى الملك الناصر داود في الكرك يطلب منه إرسال أخيه الصالح أيوب إليه في قفص حديد مقابل منحه أربعمائة ألف دينار وفوقهم دمشق. فرد عليه الناصر داود برسالة تقول : « وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده في قفص حديد، وأنك تعطيني أربعمائة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني إياها، فأما الذهب فهو عندك كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هي معه، وسلمتها إلي، سلمت أخاك إليك، وهذا جوابي والسلام «. ولما وصل العادل رد ابن عمه الناصر داود أمر بالتجهيز للخروج إلى الشام للاستيلاء على دمشق التي كانت في يد عمه الملك عماد الدين إسماعيل. أطلع الناصر داود ابن عمه الصالح أيوب على كتاب أخيه العادل، وكتب له أبياتاً من الشعر ليست من تأليفه فيها : « فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني.. فالرزايا إذا توالت تولت «،

فرد عليه الصالح شاكراً، وأضاف هو الآخر أبياتاً شعرية من بينها بيت يقول: «أما ترى البحر تطفوا فوقه جيف.. ويستقر بأقصى قعره الدرر».

## تحرير القدس وإطلاق سراح الصالح أيوب

بينما ملوك بني أيوب في صراعاتهم منشغلون قام الصليبيون ببناء قلعة في القدس، وكان هذا خروجاً على أحد شروط معاهدة الملك الكامل وفردريك الثاني، فلما بلغ الملك الناصر داود ذلك سار إلى القدس بجنود من مصر وضربها بـ المجانق وأستولى عليها وأخرج الصليبيين منها في ٧ ديسمبر ١٢٣٩م/ ٩ جمادي الأولى سنة ٦٣٧ هـ، بعد أن حاصرها أحد وعشرين يوماً. وكتب جمال الدين بن مطروح مادحاً الناصر داود حفيد الناصر صلاح الدين: «فناصر طهره أولاً.. وناصر طهره آخرا». ثم أشتبك الصليبيون مع العسكر المصري المقيم بساحل الشام فهزموا وقتل منهم الكثيرين ونقلت اسراهم إلى مصر.

لم يعط السلطان العادل دمشق للملك الناصر داود، ولم يرسل الناصر داود الصالح أيوب إلى السلطان العادل، وتعقدت الأمور بينهما وازدادت علاقتهما ببعضهما البعض سوءً، ولم تنجح محاولات إقامة صلح بينهما من جهة، وبينهما وبين الملك عماد الدين إسماعيل من جهة آخرى. ثم أرسل الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة رسالة إلى الخوارزمية نقلها إليهم جمال الدين بن مطروح، يستحثهم فيها على مناصرة الملك الصالح أيوب ضد أخيه السلطان العادل، ومع الرسالة وضع رسالة آخرى من الملك الناصر داود كتب فيها: «إني لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفاً عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه واملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص».

بعد سبعة شهور من احتجاز الصالح أيوب بقلعة الكرك أطلق الملك الناصر داود سراحه بعد أن حلفه أن يأخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وأن يعطيه نصف مصر ونصف ما في خزائن ملوك تلك الأقاليم. وعن هذا حكى الصالح أيوب فيما بعد قائلاً: «فآخرجني في آخر شهر رمضان، وحلفني على أشياء ما تقدر عليها ملوك الأرض...

فحلفت له من تحت القهر والسيف، والله مطلع على ضميري «. ولما علم الملك الصالح عماد الدين في دمشق والسلطان العادل في مصر ما فعله الناصر داود عزما على قتاله وخرج العادل من مصر إلى بلبيس، وهناك انقلب عليه الأمراء، وقبضوا عليه وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستعجلون حضوره إلى مصر، فسار إليها مع الناصر وعسكر الكرك. في ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٣٧ وصل الصالح أيوب إلى بلبيس ونزل في خيمة العادل المعتقل. وفي باكر صباح اليوم التالي دخل الصالح أيوب القاهرة. أما الناصر داود فقد عاد من بلبيس إلى الكرك وقام بتسليم القدس للصليبيين.

## سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

عاد الصالح أيوب إلى القاهرة وجلس على عرش مصر بتأييد من أكابر الأمراء ومماليك والده (المماليك الكاملية)، وخطب له في المساجد، وزينت البلاد وقلعة الجبل وسر الناس لما عرفوه عنه من نجابة وشهامة. وكشف السلطان الصالح أيوب بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والامراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه فأجابوا: «لأنه كان سفيهاً «، فسألهم : « يا قضاة السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟ « فلما أجابوا بالنفي قال لهم: «أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه» فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال، فتركهم ولكنه قبض عليهم واحد تلو الآخر فيما بعد. ولما أحس الصالح أن الامراء والمماليك الأشرفية (مماليك عمه الملك الأشرف موسى) يتأمرون عليه قبض على عدد منهم من بينهم مقدمهم أيبك الأسمر. وشرع الصالح في تنظيم أمور دولته وتقوية مماليكه، وبدأ في تشييد مقر جديد له في جزيرة الروضة فأقام فيها الدور السلطانية والأسوار، ولما اكتملت انتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها مع أهله وحرمه ومماليكه.

أما في الشام فقد نشب صراع بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك وطلب الصالح إسماعيل من الصليبيين مساعدته في مقابل تسليمهم جميع ما فتحه

صلاح الدين الايوبي. ثم تطور ذاك الصراع إلى إقامة حلف مناهض للصالح أيوب في مصر، وكان من ضمن ذاك الحلف الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص. وإلى هذا الحلف انضم الصليبيون الذين وعدهم الملوك المتحالفون معهم بتسليمهم جزء من مصر بعد هزيمة الصالح أيوب. ومنح الصالح إسماعيل الصليبيين صفد وشقيف ونصف صيدا وطبرية وسائر بلاد الساحل، كما سمح لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها، مما أغضب المسلمين، فأفتى الشيخ عز الدين بن عز الدين عبد السلام بتحريم بيع السلاح للصليبيين وقطع الدعاء للصالح إسماعيل في جامع دمشق فعزله الصالح إسماعيل فسار إلى مصر حيث ولاه الصالح أيوب الخطابة بـجامع عمرو بن العاص وقلده قضاء مصر والوجه القبلي.

في سنة ٦٤١ هـ تسلم الصليبيون طبرية وعسقلان من الحلف المناهض للصالح أيوب، وتمكنوا من الصخرة بالقدس وجلسوا فوقها يحتسون الخمر وعلقوا جرس على المسجد الأقصى. عندئذ كاتب السلطان الصالح أيوب الخوارزمية في بلاد الشرق وطلب منهم الحضور إلى مصر لمعاونته في محاربة الملوك الذين تحالفوا مع الصليبيين وسلموهم أراض المسلمين.

في نفس السنة دخل المغول بلاد الروم وهزموا السلطان غياث الدين كيخسرو وأستولوا على مملكته وعلى سيواس وقيسارية، وفر غياث الدين إلى القسطنطينية. أما بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي خضع بإرادته للمغول فقد راح يجبي المال من أهل الشام لصالح المغول.

وراح المغيث عمر صاحب الكرك يتصل بهم ويرسل الرسل إليهم طالباً السماح له بالدخول في طاعتهم، هذا والخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد يسالمهم ويرسل لهم الهدايا والأموال ويقلص عدد جنود جيشه ظناً منه أن ذلك سيحميه ويحمي بغداد منهم.

## معركة غزة وتحرير القدس

عبر الخوارزمية نهر الفرات في نحو عشرة آلاف مقاتل يقودهم الأمير حسام الدين بركة خان مع عدة من الأمراء وأقتحموا بعلبك وغوطة دمشق فتحصن الصالح إسماعيل بدمشق. ثم هاجم الخوارزمية القدس وقتلوا أعداداً من الصليبيين، ومنها ساروا إلى غزة وأرسلوا للصالح أيوب يعرفونه بقدومهم فرحب بهم وسمح لهم بالإقامة في غزة وأرسل إليهم خيل وأموال.

وجهز الصالح أيوب جيشاً تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أحد مماليكه الأخصاء والذي كان معه في الكرك وقت احتجازه (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلطن فيما بعد ـ راجع فهرس وملحوظات). وخرج الجيش بقيادة بيبرس إلى غزة حيث انضم للخوارزمية. أما في الشام فقد جهز الصالح إسماعيل عسكر دمشق يقودهم الملك المنصور صاحب حمص. وانضمت إليه قوات من الكرك والعربان يقودها الظهير بن سنقر الحلبي والوزيري، والقوات الصليبية القادمة من عكاوالتي كانت تضم فرسان المعبد (الداوية) والاسباترية وفرسان التيوتون الألمان وفرسان القديس لازاروس وجيش بيت المقدس بقيادة «والتر الرابع» و«ارماند دو بريجورد» و«فيليب منوتفورت»، ورفع الصليبيون الصلبان فوق رؤوس عسكر الشام وساروا جميعاً بحلفهم نحو مصر والقساوسة يباركونهم.

في ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م / ١٣ جمادي الأولى ٦٤٢ هـ اصطدم الجمعان في شمال شرقي غزة في معركة عرفت أيضاً باسم معركة الحربية أو معركة لافوربي (La Forbie). وكان الصليبيون في ميمنة جيش الشام بأكبر جيش دفعوا به إلى ميدان القتال منذ معركة حطين ، وفي الميسرة عسكر الكرك والعربان، وفي القلب المنصور صاحب حماة. وهجم الخوارزمية علي العسكر الشامي بينما تصدى المصريون للصليبيين، وانهزم المنصور وفر الوزيري وأسر الظهير الحلبي، واحيط بالصليبيين الذين حصر جيشهم بين الخوارزمية والمصريين ولم يفلت منهم أحداً إلا من تمكن من الفرار، وقدر عدد القتلى من الصليبيين بأكثر من ٥٠٠٠ قتيل، من بينهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. وانهزم الحلف الشاميـالصليبي هزيمة منكرة

خلال عدة ساعات فقط [٦٥]، وفر المنصور إلى دمشق. ووصلت بشارة النصر إلى الملك الصالح أيوب في ١٥ جمادي الأول فزينت القاهرة وقلعتي الجبل والروضة، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وكان من بينهم كونت يافا ومقدم الاسباترية، وطيف بهم في الشوارع وهم محملين على الجمال. واستخدم الصالح أيوب الأسرى الصليبيين في إكمال تشييد جزيرة الروضة.

أما بيبرس فقد انطلق إلى عسقلان التي حوصرت عن طريقه براً وعن طريق السفن المصرية من البحر، ودخلت القوات القدس وحررتها ـ ولم يتمكن الصليبيون منذ ذاك اليوم الاستيلاء على القدس مرة آخرى ـ كما دخلت الخليل وبيت جبرين والأغوار. ثم أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمشق تحت قيادة معين الدين الحسن بن شيخ. وتحصن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وحاصرت القوات دمشق، فأرسل الصالح إسماعيل إلى معين الدين سجادة وإبريق وعكاز ومعها رسالة تقول : « اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك». فارسل إليه معين الدين جنكا وزمرا وغلالة من حرير أحمر وأصفر، ومعها رد يقول : « السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة «، واستمر الحصار.

جرت مفاوضات بين معين الدين والصالح إسماعيل، وتقرر أن يقوم الصالح إسماعيل بتسليم دمشق على أن يخرج منها سالماً هو والمنصور بأموالهم، وأن يعوض الصالح إسماعيل ببعلبك وبصرى ومواضع آخرى، وأن يعوض المنصور بحمصوتدمر والرحبة. وبهذا الاتفاق غادر الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم دمشق فدخلها معين الدين في ٨ جمادي الأولى سنة ٦٤٣ هـ وخطب للسلطان الصالح أيوب في مساجدها. وعين الأمير حسام الدين أبي علي الهذباني نائباً للسلطان في دمشق.

وصلت أنباء سقوط القدس في أيدي المسلمين إلى أوروبا، وكان لسقوطها صدى يشبه صدى سقوطها في يد صلاح الدين الأيوبي في سنة ١١٨٧م. في غضون شهر من سقوط القدس في أيدي المسلمين قام «روبرت» بطريرك بيت المقدس بإرسال «جاليران» أسقف بيروت إلى ملوك وأمراء أوروبا يستعجلهم بإرسال إمدادات إلى الأراض المقدسة لمنع زوال

مملكة بيت المقدس بالكامل. وبدأ الأوروبيون بدعم من بابا الكاثوليك اينوسينت الرابع (Pope Innocent IV) يجهزون لحملة صليبية كبيرة ضد مصر.

## انقلاب الخوارزمية على السلطان الصالح أيوب

منع معين الدين الخوارزمية من دخول دمشق حفاظاً عليها، ومنحهم الساحل عوضاً عنها. ولما علم الصالح أيوب بأن معين الدين قد عوض الصالح إسماعيل ببعلبك والخوارزمية بالساحل غضب وقبض على بعض الأمراء الذين كانوا مع معين الدين في دمشق. وبعد أن وصل الخوارزمية إلى الساحل بدؤوا يشعرون أن الصالح أيوب لم يكافئهم بالدرجة التي توقعوها فقرروا الخروج عن طاعته. سار الخوارزمية إلي داريا وانتهبوها، وأرسلوا إلى ركن الدين بيبرس في غزة يحثونه على الانضمام إليهم، فوافق وذهب إليهم، وكانت أمه خورازمية فبقي معهم وتزوج منهم. وكاتب الخوارزمية الناصر داود صاحب الكرك والصالح عماد الدين إسماعيل وأقاموا معهما حلفاً ضد الصالح أيوب.

قام الخوارزمية والصالح إسماعيل بمحاصرة دمشق وقطعوا عنها المونة، مما أدى إلى معاناة سكانها ووقوع مجاعة بها حتى راح الناس يأكلون القطط والكلاب. وفي مواجهة ذلك قام الصالح أيوب بإقامة تحالف مع المنصور إبراهيم صاحب حمص والناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب لمحاربة الخوارزمية. وتمكن الصالح أيوب من إعادة مملوكه ركن الدين بيبرس إلى مصر وسجنه ولم يظهر بعد ذلك.

خرج الصالح أيوب من مصر بجيشه والملك المنصور من حمص بجيش حلب، فلما علم الخوارزمية بذلك رحلوا عن دمشق لمحاربة الملك المنصور. والتقى الجمعان بظاهر حمص في أول محرم سنة ٦٤٤هـ فانهزم الخوارزمية وقتل مقدمهم بركة خان وتشتتوا وتبدد شملهم، ومنهم من التحق بالمغول ومنهم من فر إلى البلقاء ودخل في خدمة الملك الناصر داود بالكرك فقويت شوكته بهم. وفر الصالح إسماعيل إلى حلب. ثم خرج نائب السلطان الأمير حسام

الدين الهذباني من دمشق واستولى على بعلبك واعتقل الملك المنصور نور الدين ابن الصالح إسماعيل ونقله إلى القاهرة التي أقيمت بها الزينات فرحة بأخذ بعلبك، إذ أن الصالح أيوب كان مهتماً بأخذ بعلبك عن أخذ دمشق نظراً لموقعها. وأرسل الصالح أيوب إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب يطلب منه تسليمه الصالح إسماعيل، إلا أن الملك الناصر يوسف رفض. ثم خرج الصالح أيوب لمحاربة الكرك والتقى بعسكر الكرك ومعهم الخوارزمية عند الصلت في ١٧ ربيع الآخر ٦٤٤هـ فهزمهم، وفر الناصر داود مع من بقي منه من عسكره إلى الكرك. وسير الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف إلى البلقاء فاستولى عليها ثم مرض وعاد إلى القاهرة واستولى عسكره على بصرى.

في ١٧ ذي القعدة ٦٤٤هـ دخل الصالح أيوب دمشق التي زينت له ثم ذهب إلى بعلبك ومنها إلى بصرى ثم دخل القدس وتصدق فيها بألفي دينار مصرية وأمر بتعمير سورها ثم أخذ عسقلان وعاد إلى مصر.

في سنة ٦٤٦ هـ خرجت عساكر الملك الناصر يوسف صاحب حلب بقيادة شمس الدين لؤلؤ والملك الصالح إسماعيل لأخذ حمص، التي كان صاحبها الملك المنصور قد توفى في غضون ذلك وصارت في ولاية ابنه الأشرف. وقام الأشرف بتسليم حمص للناصر يوسف الذي منحه تل باشر عوضاً عنها. فذهب الصالح أيوب إلى دمشق وأرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى حمص فحاصرها ورماها بالمنجنيق، ثم عقد الصلح بين السلطان الصالح أيوب والملك الناصر يوسف بوساطة الخليفة في بغداد، فرحل عنها فخر الدين. وفي نفس السنة طلب الناصر داود تسليم الكرك إلى الصالح أيوب على أن يعوضه بالشوبك فوافق الصالح أيوب وأرسل من يتسلمها. ولكن بعد أن علم الناصر داود أن الصالح أيوب يعاني من شدة المرض وأن الصليبيين في حركة لمهاجمة مصر رفض تسليم الكرك.

## الحملة الصليبية السابعة ووفاة السلطان الصالح أيوب

عندما وردت الأنباء بحركة الصليبيين لمهاجمة مصر، عاد الصالح أيوب إلى مصر من دمشق محمولاً في محفة لشدة مرضه ونزل في أشموم طناح على البر الشرقي من الفرع الرئيسي للـ نيل. ويقال أن الإمبراطور فردريك الثاني هو الذي حذر الصالح أيوب واخبره في رسالة جاء فيها عن لويس التاسع: «إنه قد وصل في خلق كثير، وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته، فلم يرجع لقولي، فكن منه على حذر «

بعد هزيمة الصليبيين في معركة غزة ١٢٤٤م قرر الصليبيون تجهيز حملة كبيرة ضد مصر لإخراجها من الصراع على بيت المقدس والشام. في عام ١٢٤٥، أثناء انعقاد مجمع ليون الكنسي الأول، وبحضور روبرت بطريرك بيت المقدس، منح بابا الكاثوليك اينوسينت الرابع تأييده الكامل للحملة الصليبية السابعة التي كان يجهز لها ملك فرنسا لويس التاسع وقام بابا الكاثوليك وملوك أوروبا بالترويج للحملة وفرض الضرائب وجمع الأموال لتمويلها.

في ٢٤ جمادى الأولى ٦٤٦ هـ/ ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م أبحرت سفن الحملة من فرنسا بقيادة لويس التاسع، وبعد أن توقفت في قبرص لنحو سنة، توجهت إلى مصر وأنزلت جنودها على بر دمياط في فجر السبت ٢٢ صفر ٦٤٧ هـ/ ٥ يونيو١٢٤٩. وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه الاستسلام (رسالة لويس التاسع إلى الصالح أيوب ). بعد أن قرئ كتاب لويس على الصالح أيوب، الذي كان يعاني من مرض قاتل، اغرورقت عيناه، ورد عليه محذراً اياه من مغبة عدوانه وغروره، وينبئه بأن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقلبه (رسالة السلطان الصالح أيوب إلى لويس التاسع )

## استيلاء الصليبيين على دمياط

كان الصالح أيوب قد استعد لمواجهة الصليبيين، فحصن دمياط وشحنها بالسلاح والمؤونة والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير

فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر في البر الغربي لدمياط حتى يواجه الفرنج إذا قدموا. اصطدمت قوات الفرنج الغازية بالمسلمين على البر وفي النهاية اضطر المسلمون للتراجع، وفي المساء انسحب الأمير فخر الدين إلى معسكر السلطان في «أشموم طناح»، تاركاً دمياط بكل مافيها من سلاح ومؤونة وأقوات، بعد أن ظن أن السلطان الصالح أيوب قد توفى ، ففر السكان ومعهم العربان الذين كانوا قد وكلوا بالدفاع عن المدينة. دخل الصليبيون دمياط بدون التعرض لمقاومة تذكر فاحتلوها وحصنوا أسوارها وحولوا جامعها إلى كاتدرائية، ونصبوا أسقفاً عليها. صدم المسلمون من سقوط دمياط وحنق السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين وقال له: «أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟» وأمر بإعدام نحو خمسين من أمراء العربان.

أمر الصالح أيوب بإرسال الشواني بالمحاربين والسلاح إلى جبهة القتال، وأعلن النفير العام في البلاد وراحت المساجد تحرض الناس على الجهاد مرددة « انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» فهرول الناس من كافة أنحاءالبلاد إلى المنصورة لأجل الجهاد ضد الغزاة. وشن المجاهدون حرب عصابات على الصليبيين وأصابوهم بخسائر فادحة.

في ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م، بعد نحو ستة أشهر من احتلال دمياط، قرر الصليبيون المسير نحو القاهرة فخرجوا من دمياط وتقدموا جنوباً نحو المنصورة ومعهم شوانيهم في بحر النيل، حتى وصلوا في ٢١ ديسمبر إلى ضفة بحر أشموم (يعرف اليوم بالبحر الصغير)، وهناك حصنوا الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا الخنادق، ونصبوا المجانيق ليرموا بها جيش المسلمين، ونشب قتال عنيف بين الصليبيين والمسلمين في البر ومياه النيل. حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى المسلمين ولكن المسلمين ظلوا يمطرونهم بالقذائف.

## وفاة السلطان الصالح أيوب

في ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م، بينما الحرب مشتعلة بين المسلمين والصليبيين، توفى السلطان الصالح أيوب وهو في الرابعة والأربعين، تاركاً البلاد بلا حاكم، بعد أن حكمها تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما. نقلت شجر الدر جثمان زوجها الصالح أيوب سراً في تابوت نقلته في حراقة من المنصورة إلى قلعة جزيرة الروضة، وأخفت خبر وفاته، وأدارت البلاد بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتابك العسكر والطواشي جمال الدين محسن رئيس القصر. وأرسلت الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار زعيم المماليك البحرية إلى حصن كيفا لإحضار ابنه توران شاه لتسلم عرش البلاد وقيادتها في حربها ضد الغزاة. إلا أن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجع الصليبيون وعبروا بحر أشموم وهجموا بغتة على معسكر المسلمين في « جديلة « حيث قتل الأمير فخر الدين وتقهقرت القوات إلى المنصورة. وتسلم فارس الدين أقطاي الجمدار قيادة الجيش. ولما حاول الصليبيون دخول المنصورة خرج عليهم المماليك وهم يصيحون كالرعد القاصف ومعهم العوام والأهالي، وأخذوهم بالسيوف من كل جانب.

انهزم الصليبيون وتحصنوا داخل معسكرهم ثمانية أسابيع على أمل معاودة الكرة، إلا أن توران شاه وصل إلى مصر، وأعلنت شجر الدر رسمياً، في شوال ٦٤٧هـ نبأ وفاة زوجها السلطان الصالح أيوب، وتمت محاصرة الصليبيين الذين اضطروا في النهاية للجؤ للفرار نحو الشمال إلى دمياط فتبعهم المماليك والمجاهدين وقضوا عليهم عند فارسكور، وأسر ملكهم لويس التاسع مع عدد كبير من أمراءه وقواده. (انظر: معركة المنصورة).

هذا في مصر، أما في الشرق فقد استمرت غارات المغول على بغداد، بينما الخليفة المستعصم يهادنهم ويرسل لهم الهدايا، آخذاً بنصائح وزيره ابن العلقمي الذي كان على اتصال بهم، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل خاضع لوصايتهم ويجبي لهم الأموال عن طيب خاطر.

## دفن الصالح أيوب

في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٦٤٨ هـ، في عهد السلطان عز الدين أيبك. نقل جثمان السلطان الصالح أيوب من قلعة الروضة إلى مدفنه في القبة التي بنتها له شجر الدر بجوار المدارس الصالحية في منطقة بين القصرين بالقاهرة. وقد أقيمت مراسم دفن للملك الصالح وصلى عليه بعد صلاة الجمعة، بمشاركة السلطان عز الدين أيبك، والملك الأشرف موسى وسائر المماليك البحرية والجمدارية وأرباب الدولة، ولبس كل الأمراء الزي الأبيض، وقص المماليك شعورهم تعبيراً عن الحزن، وأغلقت الأسواق، ووضع عند تربته سناجقه وبقجته وتركاشه وقوسه. وأقيم له عزاء بالدفوف في بين القصرين دام ثلاثة أيام.

أنجب السلطان الصالح أيوب من الأولاد المغيث فتح الدين عمر الذي مات في سجن قلعة دمشق وكان أكبر أولاده، والملك غياث الدين توران شاه الذي تسلطن بعده وقتله المماليك بعد أن دخل في صراع معهم وأرملة أبيه شجر الدر، والملك القاهر، وكان الأصغر، وقد مات في حياة الصالح، وأنجب ولداً من شجر الدر سماه خليلاً وقد مات صغيراً. ويصف المقريزى الملك الصالح أيوب بأنه كان ملكاً شجاعاً حازماً مهيباً، وأنه كان كثير الحياء والعفة، معرض عن الهزل ولا يصدر عنه فحش الكلام وكان إذا شتم أحداً لا يزيد عن كلمة « متخلف».

## مماليك الصالح أيوب

كان المماليك موجودون في العصر الأيوبي منذ بدايته، وحتى في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولعبوا أدواراً عسكرية وسياسية ذات أهمية، إلا أن الصالح أيوب توسع في الاستعانة بهم. فبعد تفرق عساكره عنه سنة ٦٣٧ هـ ولم يبق معه سوى مماليكه حفظ لهم الجميل، فلما ملك مصر قربهم منه وأشترى غيرهم وجعلهم عماد جيشه. ولما بنى جزيرة الروضة اسكنهم معه فيها وسماهم البحرية، وأعتق العديدين منهم وأنعم عليهم بالأمريات. وبعد انقلاب الخوارزمية عليه إزداد اعتماد الصالح أيوب على المماليك. وعرف مماليك الملك الصالح نجم

الدين أيوب بالمماليك الصالحية النجمية نسبة إليه. ومع ذلك، فإن المماليك الذين أستعين بهم قبل الصالح أيوب كانوا محاربين كبار السن، أتقنوا فن الحرب وعركوا المعارك قبل أنضمامهم. أما الصالح أيوب فقد استجلب مماليك صغار السن وأقام لهم نظاماً معيشياً خاصاً يتضمن تربيتهم المدنية والحربية، فشبوا على الولاء الكامل له.

بعد هزيمة الصليبيين في المنصورة علا شأن أولاء البحرية في مصر وانبهر الناس بهم وبأعمالهم البطولية التي حفظت البلاد. وبعد معركة فارسكور دخل المماليك في صراع مع توران شاه ابن الصالح أيوب بعد أن هددهم وتنكر لأرملة أبيه شجر الدر وعاملها بما لا يليق دون أن يحفظ لها جميل صونها لعرش أبيه وتوريثه له. وانتهى الصراع بقتل المماليك لتوران شاه بعد أن حكم ٤٠ يوماً، وبموته انكمشت دولة بني أيوب، التي حكمت نحو ٨٦ سنة، ولم يعد لها سوى وجود هزيل في بلاد الشام وظلت على هذا النحو حتى تلاشت بعد أن ملك المماليك مصر، وتصدوا للمغول في معركة عين جالوت وحرروا الشام منهم. كان الأيوبيون بصراعتهم الداخلية وبتحالف بعضهم مع أعداء المسلمين، الصليبيين والمغول، ضد بعضهم البعض قد أفقدهم مكانتهم ومبررات بقائهم حكاماً على بلاد المسلمين. من رحم الدولة الأيوبية ولدت الدولة المملوكية، التي زرع بذرتها الملك الصالح أيوب دون أن يقصد، دولة فتية قوية تعتز بالإسلام وتزود عنه، ولا تفرط في حقوق المسلمين وأراضيهم.

## انجازات الصالح أيوب العمرانية

كان الصالح أيوب يحب العمارة ويشرف بنفسه على عمليات البناء ويصمم العمائر. وشيد بمصر ما لم يشيده أحد من ملوك بني أيوب. ومن ضمن ما شيده:

• قلعة الروضة : شرع الملك الصالح في تشييدها سنة ٦٣٨هـ، على جزيرة الروضة تجاه مدينة الفسطاط، وأقام جسراً فخماً بين الجزيرة ومصر (المدينة). سكن فيها مع المماليك بدلاً من قلعة الجبل.

• مدينة الصالحية : شرع الملك الصالح في بنائها سنة ٦٤٠هـ لتكون مركزاً للجيوش المتجهة إلى الشام، وانشأ بها المساجد والاسواق والطواحين.

• مسجد الصالح أيوب : أقدم مساجد المنصورة شيده الملك الصالح تقريباً سنة ٦٤٠هـ وكان به استراحة للزوار من المماليك ويتصف بأنه تحفة معمارية وتم ترميمه بمعرفة وزارة الأوقاف وهو من المساجد الهامة بمدينة المنصورة ويقع بشارع الملك الصالح الشهير حالياً بشارع العباسي بالمنصورة.

• المدارس الصالحية : شرع الملك الصالح في عمارتها في عام ٦٣٩هـ بمنطقة بين القصرين بالقاهرة. كانت تدرس للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة لأول مرة في مصر.دفن الصالح أيوب بقبتها.

• قصور اللوق : مجموعة قصور فخمة بناها على النيل بناحية اللوق (باب اللوق فيما بعد).

• قصر الكبش : شيده على جبل المقطم بجوار جامع ابن طولون.

• منتزه الكبش : منتزه أقامه الملك الصالح على بركة الفيل فيما بين مصر والقاهرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# المصادر والمراجع
## بعد القرأن الكريم والسنة النبوية الشريفة

١. محمد كمال الدين عز الدين (١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠م). عبد الباسط الحنفي مؤرخًا (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. عالم الكتب صفحة ١٤٨

٢. فؤاد صالح السَّيِّد (٢٠١٤م). معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مكتبة حسن سعد العصرية صفحة ٦٧

٣. بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ٣١ مارس ٢٠١٦

٤. الأيوبيون اكتشف سوريا. وصل لهذا المسار في ٣١ مارس ٢٠١٦

٥. مقتل الأمير توران شاه الأيوبي على يد المماليك مفكرة الإسلام. وصل لهذا المسار في ٣١ مارس ٢٠١٦[نسخة محفوظة ٢٣ أبريل ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.

٦. التاريخ الإسلامي الدولة الأيوبية موسوعة الأسرة المسلمة. وصل لهذا المسار في ٣١ مارس ٢٠١٦]نسخة محفوظة ٠٤ نوفمبر ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.

٧. سامي عبدالله المغلوث (١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م). أطلس تاريخ العصر المملوكي (الطبعة الأولى). الرياض ـ السعودية. مكتبة العبيكان صفحة ١٧

٨. عبد الرحمن عزام (٢٠١٣م). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني (الطبعة الثانية). الدوحة ـ قطر. دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر صفحة ٤٢

٩. تعدى إلى الأعلى ل:أ ب النسب الأيوبي الحقيقي السلطان صلاح الدين الأيوبي. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦

١٠. تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث عام ٥٦٤ هجري

١١. رجال خالدون، صلاح الدين الأيوبي يا بيروت. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦

١٢. تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ت مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ذكر نسب بني أيوب

١٣. طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.
١٤. صلاح الدين الأيوبي.. شيء من سيرته وحديث عن أصوله نايف بن عوض الوسمي صحيفة الجزيرة، ٢٠ نوفمبر ٢٠١١. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦
١٥. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال (١٣٧٧ هـ-١٩٥٧م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الجزء الأول (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية صفحة ٥
١٦. المرتضى الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد (١٩٩٥م). ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب (الطبعة الثانية).بيروت - لبنان. دار الكتاب الجديد صفحة ٣٦
١٧. علي محمد الصلابي (١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦م). الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مؤسسة اقرأ صفحة ١٣٩
١٨. أسد الدين شيركوه فاتح مصر الثاني مجلة العربي. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦ نسخة محفوظة ٢٣ أبريل ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.
١٩. المرتضى الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد (١٩٩٥م). ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب (الطبعة الثانية).بيروت - لبنان. دار الكتاب الجديد صفحة ٦٨
٢٠. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٢٢٦
٢١. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ١٦٧
٢٢. تعدى إلى الأعلى ل:أب سقوط دولة الفاطميين د. عبد الحليم عويس قصة الإسلام، ١٠ أغسطس ٢٠٠٨. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦
٢٣. قاسم عبده قاسم، علي السيد علي (١٩٩٥م). الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري (الطبعة الأولى).بيروت - لبنان. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية صفحة ٢٣
٢٤. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ١٦٨
٢٥. محمد جمال الدين سرور (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الفكر العربي صفحة ١١٥
٢٦. تعدى إلى الأعلى ل:أب بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦

٢٧. الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري صفحة ٢٤
٢٨. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت-لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ١٧٤
٢٩. محمد جمال الدين سرور (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الفكر العربي صفحة ١١٦
٣٠. محمد جمال الدين سرور (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الفكر العربي صفحة ١١٧
٣١. ابن خلكان، حققه إحسان عباس (١٤٣١ هـ-١٩٩٤م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الجزء السابع (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان. دار صادر صفحة ١٥٤
٣٢. محمد جمال الدين سرور (١٩٩٥م). تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الفكر العربي صفحة ١٢١
٣٣. عبد الرحمن عزام (٢٠١٣م). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني (الطبعة الثانية). الدوحة-قطر. دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر صفحة ١١١
٣٤. عباس محمود العقاد (١٩٧٩م). شخصيات إسلامية المجلد الثالث (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان. دار الكتب العربي صفحة ١٧٤
٣٥. نور الدين محمود زنكي، راغب السرجاني قصة الإسلام، ٢٩ يونيو ٢٠١٠. وصل لهذا المسار في ٧ أبريل ٢٠١٦
٣٦. كتاب القائد المجاهد نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره صفحة ٣٨٦ المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٧ أبريل ٢٠١٦
٣٧. تعدى إلى الأعلى ل:أ ب تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ١٤٧
٣٨. البير شاندور، ترجمة سعيد أبو الحسن (١٩٩٣م). صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام (الطبعة الثانية).دمشق-سوريا. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر صفحة ١١٥
٣٩. محمد فريد أبو حديد (١٣٤٦ هـ-١٩٢٧م). صلاح الدين الأيوبي وعصره (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مطبعة دار الكتب المصرية صفحة ٧٩
٤٠. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت-لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٢٢٩
٤١. عرب دعكور (١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م). تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان. دار النهضة العربية صفحة ١٥٠

٤٢. محمد فريد أبو حديد (١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٧م). صلاح الدين الأيوبي وعصره (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مطبعة دار الكتب المصرية صفحة ٦٨
٤٣. الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري صفحة ٢٩
٤٤. خالد الكركي (٢٠٠٥م). ورد ورماح: قراءات في البطولة (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر صفحة ٥٧
٤٥. البير شاندور، ترجمة سعيد أبو الحسن (١٩٩٣م). صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام (الطبعة الثانية). دمشق ـ سوريا. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر صفحة ١٣٢
٤٦. بهاء الدين بن شداد (١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (الطبعة الثانية). القاهرة ـ مصر. مكتبة الخانجي صفحة ٢٤
٤٧. محمد حمدان السيد (١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢م). الفرق في الإسلام في مئة سؤال و جواب: جذورها وحاضرها (الطبعة الأولى). عمان ـ الأردن. دار المأمون للنشر والتوزيع صفحة ٨٤
٤٨. كتاب صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس صفحة ٤٢٢ المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦
٤٩. أبو مسلم يوسف (٢٠٠٦م). الأمن وتاريخ مصر: الشرطة في نصر على مر العصور (الطبعة الأولى). الإسكندرية ـ مصر. مركز الإسكندرية للكتاب صفحة ١٠٠
٥٠. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الجزء الثاني (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية صفحة ٤٧
٥١. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ١٥٩
٥٢. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ١٥٩ ـ ١٦٠
٥٣. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٢١٣
٥٤. محمد سهيل طقوش (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار النفائس صفحة ٥٠
٥٥. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٢١٥
٥٦. كتاب الروضتين في أخبار النورية و الصلاحية لأبو شامة المقدسي الموسوعة الشاملة. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦

٥٧. كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الخامس صفحة ١٤٠ الموسوعة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٥٨. تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار صفحة ٤١
٥٩. محمود شاكر (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م). التاريخ الإسلامي الجزء السادس الدولة العباسية الجزء الثاني (الطبعة الثاني). بيروت ـ لبنان. المكتبة الإسلامية صفحة ٣١٦
٦٠. صلاح الدين الأيوبى وحرب الاسترداد الإسلامية (تحرير القدس من الفرنج) بقلم الدكتور قاسم عبده قاسم عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. وصل لهذا المسار في ١ أبريل ٢٠١٦
٦١. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٤٩٣
٦٢. سهيل زكار (١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م). الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (الطبعة الأولى). دمشق ـ سوريا. صفحة ١١٢٦
٦٣. عارف العارف (٢٠٠٥م). المفصَّل في تاريخ القدس (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر صفحة ١١٢٦
٦٤. علي محمد الصلابي (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م). الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مؤسسة اقرأ صفحة ١٤٢
٦٥. كتاب صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس صفحة ٥٠٤ المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٦٦. عدنان الطرشة (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م). نهاية الأمم: سنة الله في إزالة الأمم من نهاية قوم نوح إلى نهاية أمة المسلمين (الطبعة الأولى). الرياض ـ السعودية. مكتبة العبيكان صفحة ٢٩٦
٦٧. سهيل إبراهيم عيساوي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى). إي كتب صفحة ٧٤
٦٨. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب الجزء الثاني (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية صفحة ٢٠١
٦٩. علي محمد الصلابي (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م). الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مؤسسة اقرأ صفحة ١٤٦
٧٠. معركة حطين وانتصار المسلمين على الصليبيين مبرة الآل والأصحاب. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٧١. معركة حطين.. وما بعدها بقلم راغب السرجاني قصة الإسلام، ١٥ مارس ٢٠١١. وصل لهذا المسار في

٢ أبريل ٢٠١٦
٧٢. الحملة الصليبية الثالثة و معاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الاسد ١١٩٢م تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٧٣. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. الدار المصرية اللبنانية صفحة ٤
٧٤. الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري صفحة ٧٢
٧٥. علي محافظة (٢٠٠٩م). شخصيات من التاريخ: سير وتراجم موجزة (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر صفحة ٢٢
٧٦. الحملة الصليبية الثالثة بقلم راغب السرجاني قصة الإسلام، ١٩ نوفمبر ٢٠١٤. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٧٧. كتاب صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس صفحة ٦٣١ المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٧٨. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٢٠٥
٧٩. فؤاد صالح السيد (٢٠١٤م). معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي (الطبعة الثانية). القاهرة ـ مصر. مكتبة حسن سعد العصرية صفحة ٨٢٥
٨٠. علي محمد الصلابي (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦م). الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مؤسسة اقرأ صفحة ١٥٢
٨١. عماد الدين الأصفهاني (١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٧م). الفتح القسي في الفتح القدسي (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. دار المنار صفحة ٣٢
٨٢. الحملة الصليبية الرابعة، راغب السرجاني ثصة الإسلام، ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
٨٣. قاسم عبده قاسم (١٩٩٠م). ماهية الحروب الصليبية (الطبعة الأولى). مدينة الكويت ـ الكويت. عالم المعرفة صفحة ١٢٣
٨٤. سليم محاسيس (١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م). معجم المعارك التاريخية (الطبعة الأولى). عمان ـ الأردن. دار زهران للنشر والتوزيع صفحة ٣٢٢
٨٥. المكين جرجس بن العميد (١٩٩٨م). أخبار الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مكتبة الثقافة الدينية صفحة ٨
٨٦. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧م). مفرج الكروب في

أخبار بني أيوب الجزء الثالث (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية صفحة ٢٦١

٨٧. الحملة الصليبية الخامسة، راغب السرجاني قصة الإسلام، ٢ مارس ٢٠١٥. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦

٨٨. السلطان العادل يخلف أخيه صلاح الدين تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦

٨٩. علي محمد الصلابي (٢٠٠٨م). الأيوبيون بعد صلاح والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة (الطبعة الأولى).القاهرة ـ مصر. دار ابن الجوزي صفحة ١٠١

٩٠. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. الدار المصرية اللبنانية صفحة ٧

٩١. صلاح الدين الأيوبي والمماليك في مصر صفحة ٣٣

٩٢. المكين جرجس بن العميد (١٩٩٨م). أخبار الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مكتبة الثقافة الدينية صفحة ١٢

٩٣. الحملة الصليبية السادسة المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير، ٢٥ أبريل ٢٠١١. وصل لهذا المسار في ٨ أبريل ٢٠١٦[وصلة مكسورة] نسخة محفوظة ٢٤ أبريل ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.

٩٤. منير البعلبكي (١٩٩٢م). معجم أعلام المورد (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار العلم للملايين صفحة ٣٢٣

٩٥. الأيوبيون بعد صلاح والحملات الصليبية صفحة ٢٤٧

٩٦. السلطان الكامل و الحملة الصليبية الخامسة علي مصر ١٢١٨م تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦

٩٧. الحملة الصليبية السادسة، راغب السرجاني قصة الإسلام، ٢٤ يوليو ٢٠١٥. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦

٩٨. حسين مؤنس (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م). أطلس تاريخ الإسلام (الطبعة الثانية). القاهرة ـ مصر. الزهراء للإعلام العربي صفحة ٢٧٠

٩٩. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٧٢م). مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار النهضة العربية صفحة ٩٨

١٠٠. سامي عبدالله المغلوث (١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م). أطلس تاريخ العصر المملوكي (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. مكتبة العبيكان صفحة ١٥

١٠١. عبد الستار الشيخ (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م). الحافظ الذهبي: مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، إمام المعدلين

والمجرحين (الطبعة الأولى). دمشق ـ سوريا. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ١٧
١٠٢. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٧٢م). مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار النهضة العربية صفحة ١٠٣
١٠٣. منذر الحايك (٢٠١١م). العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية (الطبعة الأولى). دمشق ـ سوريا. دار صفحات للدراسات والنشر صفحة ٢٥٩
١٠٤. ابن كثير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحي الدين مستو (١٤٠٢ هـ). الفصول في سيرة الرسول (الطبعة الثالثة). دمشق ـ سوريا. مؤسسة علوم القران صفحة ٦٦
١٠٥. المكين جرجس بن العميد (١٩٩٨م). أخبار الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مكتبة الثقافة الدينية صفحة ٣٦
١٠٦. الأيوبيون بعد صلاح والحملات الصليبية صفحة ٢٨٦
١٠٧. محمد العروسي المطوي (١٤٣١ هـ ـ ١٩٨٢م). الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار الغرب الإسلامي صفحة ١١٩
١٠٨. جم الدين أيوب و شجر الدر و الحملة الصليبية السابعة علي مصر تاريخ مصر. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
١٠٩. موقعة فارسكور ـ الحملة الصليبية السابعة مفكرة الإسلام، ٢٣ فبراير ٢٠٠٤. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦[وصلة مكسورة] نسخة محفوظة ٢٣ أغسطس ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.
١١٠. مجلة كلية العلوم الإسلامية (١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م). الباحث محمد يونس فلح، الملك الصالح نجم الدين أيوب وعلاقته بالقوى السياسية (٦٣٨ – ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠ – ١٢٦٠م) (المجلد ٧، العدد ١٣). الموصل ـ العراق
١١١. نجاة سليم محاسيس (١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م). معجم المعارك التاريخية (الطبعة الأولى). عمان ـ الأردن. زهران للنشر والتوزيع صفحة ٣٨٠
١١٢. حسين مؤنس (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م). أطلس تاريخ الإسلام (الطبعة الثانية). القاهرة ـ مصر. الزهراء للإعلام العربي صفحة ٢٧١
١١٣. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. الدار المصرية اللبنانية صفحة ٨
١١٤. مقتل السلطان الأيوبي توران شاه مفكرة الإسلام، ٢٢ ديسمبر ٢٠١١. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦
١١٥. نهاية الدولة الأيوبية بقلم راغب السرجاني قصة الإسلام، ١٥ مارس ٢٠١٣. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل

١١٦. كتاب طبقات الشافعية الكبرى كتاب ذكر الموت الطبقة السادسة فيمن توفي بين الست مائة والسبع مائة توران شاهموسوعة الحديث. وصل لهذا المسار في ٢ أبريل ٢٠١٦

١١٧. إبراهيم شمس الدين (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م). قصص العرب الجزء الأول (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار الكتب العلمية صفحة ٢٠٣

١١٨. محمود شاكر (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م). التاريخ الإسلامي الجزء السابع العهد المملوكي (الطبعة الخامسة). بيروت - لبنان. المكتب الإسلامي صفحة ٢٣

١١٩. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. الدار المصرية اللبنانية صفحة ٩

١٢٠. محمود شاكر (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م). التاريخ الإسلامي الجزء السابع العهد المملوكي الجزء الثاني (الطبعة الخامسة). بيروت - لبنان. المكتبة الإسلامية صفحة ٢٤

١٢١. المكين جرجس بن العميد (١٩٩٨م). أخبار الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مكتبة الثقافة الدينية صفحة ٣٩

١٢٢. محمد سهيل طقوش (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م). تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار النفائس صفحة ٢٠٣

١٢٣. عبد الرحمن بن خلدون (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (الجزء الخامس الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٤٣٣

١٢٤. محمود شاكر (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م). التاريخ الإسلامي الجزء السابع العهد المملوكي الجزء الثاني (الطبعة الخامسة). بيروت - لبنان. المكتبة الإسلامية صفحة ٢٧

١٢٥. رغد عبد الكريم النجار (٢٠١٢م). العراق في العهد الجلائري، دراسة في الأوضاع السياسية (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار غيداء للنشر والتوزيع صفحة ١١

١٢٦. ابن العماد الحنبلي (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب المجلد السابع (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٨٢٢

١٢٧. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٤٠٧

١٢٨. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٤٠٩

١٢٩. ابن العماد الحنبلي (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م). قصة التتار من البداية إلى عين جالوت (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة صفحة ٣٣٩

١٣٠. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. الدار المصرية اللبنانية صفحة ١١

١٣١. عماد الدين الأصفهاني (١٩٧٨م). تاريخ دولة آل سلجوق (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار الآفاق صفحة ٧٧

١٣٢. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٤٠٤

١٣٣. ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس (١٩٩٤م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الجزء السابع (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار صادر صفحة ٤٢

١٣٤. تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ت الدولة الأيوبية منارة الإسلام، ١٥ أبريل ٢٠١٥. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٣٥. عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي (١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م). البداية والنهاية (الطبعة الأولى) الجزء السابع عشر. الجيزة ـ مصر. هجر للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٣٦١

١٣٦. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣٠٩

١٣٧. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣١٠

١٣٨. عمرو موسى باشا. الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك (الطبعة الثانية). دمشق ـ سوريا. المكتبة العباسية صفحة ٦٤

١٣٩. عبد الرحمن عزام (٢٠١٣م). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني (الطبعة الثانية). الدوحة ـ قطر. دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر صفحة ١١٤

١٤٠. كتاب موسوعة البحوث والمقالات العلمية الموسوعة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٤١. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٢٩٦

١٤٢. صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه صفحة ٣٨٨

١٤٣. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٣٤٦

١٤٤. أنور محمود زناتي (٢٠١١م). مجمع مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية (الطبعة الأولى). عمان ـ الأردن. دار زهران للنشر والتوزيع صفحة ١٦٨

١٤٥. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣١٢

١٤٦. محسن محمد حسين (٢٠٠٢م). الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (الطبعة الأولى). أربيل ـ كردستان. دار ثاراس للطباعة والنشر صفحة ٦٨

١٤٧. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣١٦
١٤٨. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين صفحة ٢٠٥
١٤٩. دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية (٢٠١٥م). الباحثة فوزية خالد الطواهية، النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (المجلد ٤٢، العدد ٢). عمان ـ الأردن. صفحة ٢٩٤
١٥٠. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣١٨
١٥١. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين صفحة ٢١٠ ـ ٢١٤
١٥٢. محمد رجب البيومي (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م). صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي (الطبعة الأولى). دمشق ـ سوريا. دار القلم صفحة ١٢٣
١٥٣. أنور عبد العليم (١٩٧٩م). الملاحة وعلوم البحار عن العرب (الطبعة الأولى). مدينة الكويت ـ الكويت. عالم المعرفة صفحة ٨٥
١٥٤. ل.أ. سيميونوفا، ترجمة حسن بيومي (١٩٩٨م). صلاح الدين الأيوبي والمماليك في مصر (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. المجلس الأعلى للثقافة صفحة ٢٦٠
١٥٥. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٨٩
١٥٦. محمود شاكر (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م). التاريخ الإسلامي الجزء السابع العهد المملوكي (الطبعة الثاني). بيروت ـ لبنان. المكتبة الإسلامية صفحة ٢٤
١٥٧. سامي عبدالله المغلوث (١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م). أطلس تاريخ العصر المملوكي (الطبعة الأولى). الرياض ـ المملكة العربية السعودية. مكتبة العبيكان صفحة ٢٢
١٥٨. كتاب الكامل في التاريخ ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة المكتبة الإسلامية. وصل لهذا المسار في ١١ أبريل ٢٠١٦
١٥٩. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٩٥
١٦٠. المكين جرجس بن العميد (١٩٩٨م). أخبار الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مكتبة الثقافة الدينية صفحة ١٩
١٦١. تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صفحة ٣٤٠
١٦٢. البير شاندور، ترجمة سعيد أبو الحسن (١٩٩٣م). صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام (الطبعة الثانية). دمشق ـ سوريا. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر صفحة ٢٦٤
١٦٣. نصري ذياب خاطر (٢٠١١م). تاريخ أوروبا الحديث (الطبعة الأولى). الرياض ـ المملكة العربية السعودية. الجنادرية للنشر والتوزيع صفحة ٣١
١٦٤. زبيدة محمد عطا (١٩٦٨م). الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة

ـ مصر. جامعة القاهرة صفحة ١٥٥
١٦٥. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٥١١
١٦٦. مجلة المؤرخ العربي (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م). رشيد عبد الله الجميلي، العلاقات السياسية بين الأيوبيين والموحدين في المغرب الأقصى (العدد ٣٥ السنة الرابعة عشرة). بغداد ـ العراق. صفحة ١٧٠
١٦٧. عدنان زهران (٢٠٠٨م). نهضة الأمة بين عوامل الإنحدار و سبل الإرتقاء نظرة تاريخية تحليلية ومقارنة معاصة (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار زهران للنشر والتوزيع صفحة ١٤٢
١٦٨. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت ـ لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٤٤٩
١٦٩. الشيعة ومحاولات اغتيال صلاح الدين الأيوبي قصة الإسلام، ٢٣ سبتمبر ٢٠١٤. وصل لهذا المسار في ١١ أبريل ٢٠١٦
١٧٠. سيد حسين العفاني (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م). صلاح الأمة في علو الهمة (المجلد السادس الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. مؤسسة الرسالة صفحة ٣١
١٧١. شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م). أنوار البروق في أنواء الفروق (الطبعة الأولى) المجلد الأول. القاهرة ـ مصر. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٣٨
١٧٢. الخانقاه في الحضارة الإسلامية قصة الإسلام، ٢٥ مارس ٢٠١٣. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦
١٧٣. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦
١٧٤. محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق علي كنعان (٢٠٠٨م). تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار (الطبعة الأولى). أبوظبي ـ الإمارات. دار السويدي للنشر والتوزيع صفحة ٢٢٢
١٧٥. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٢٧٩
١٧٦. قاسم عبده قاسم (١٩٩٠م). ماهية الحروب الصليبية (الطبعة الأولى). مدينة الكويت ـ الكويت. عالم المعرفة صفحة ١٧٤
١٧٧. جاك تاجر (٢٠١٢م). أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي حتى عم ١٩٢٢م (الطبعة الأولى). القاهرة ـ مصر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة صفحة ١٣٨
١٧٨. ياقوت الحموي، تحقيق أحسان عباس (١٩٩٣م). معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب الجزء الأول (الطبعة الأولى). بيروت ـ لبنان. دار الغرب الإسلامي صفحة ٦٣٨

١٧٩. حضور المسيحيين العرب في العصر الأيوبي موقع أبونا، ١٨ يناير ٢٠١٦. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٨٠. الكنيسة القبطية في القرن الثاني عشر دير القديس أنبا مقار الكبير. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٨١. حقوق الأقباط التاريخية فى المدينة المقدسة.. الوجود القبطى فى القدس بوابات الحضارات. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٨٢. دور اليهود في الحروب الصليبية.. دراسة بحثية تاريخية، سارة محمود الجعبري شبكة الألوكة، ٦ يوليو ٢٠١٢. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦[وصلة مكسورة] نسخة محفوظة ٢٤ يونيو ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.

١٨٣. حول الماضي الوطني العريق للعرب الدروز واشتراكهم في التصدي للغزاة الاجانب الطامعين بحكم بلادنا، أحمد علي القضماني الجبهة، ٢ يونيو ٢٠١٢. وصل لهذا المسار في ٥ أبريل ٢٠١٦

١٨٤. العلاقات بين الطائفة الدرزية وجمهورية مصر العربية، بقلم الاستاذ علي بيراني مجلة العمامة. وصل لهذا المسار في ٥ أبريل ٢٠١٦

١٨٥. كتاب نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

١٨٦. كتاب دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي المكتبة الشاملة. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

١٨٧. مآثر صلاح الدين، التذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار رحلات المسالك. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

١٨٨. المدارس الأيوبية.. نوافذ على المذاهب مركز الخليج للدراسات، ٢٦ مارس ٢٠١٦. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

١٨٩. المدارس في العهد الأيوبي بمصر، للدكتور نعمان طيب سليمان رابطة العلماء السوريين، ١٩ ربيع الثاني ١٤٣٦ هـ. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

١٩٠. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت-لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٢٥٧

١٩١. عبد الرحمن عزام (٢٠١٣م). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني (الطبعة الثانية). الدوحة-قطر. دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر صفحة ١١٧

١٩٢. عز الدين أبي الحسن الجزري. أسد الغابة في معرفة الصحابة (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان. دار الكتب العلمية صفحة ٩٤

١٩٣. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٢٨٩

١٩٤. شاكر مصطفى (١٤١٩ هـ-١٩٩٨م). صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه (الطبعة الأولى). دمشق-سوريا. دار القلم صفحة ٤٢١

١٩٥. التجديد في الإسلام صحوة الجهاد، عبدالله عثمان فدا مجلة البيان، ١٠ نوفمبر ٢٠١٢. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

١٩٦. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت-لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع صفحة ٣٥٦

١٩٧. تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم صفحة ٣٠٥

١٩٨. مبارك محمد الطراونة (٢٠١٠م). الحياة الإجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢ هـ/ ١٣٨٢-١٥١٦م) (الطبعة الأولى). عمان-الأردن. دار جليس الزمان للطباعة والنشر صفحة ٦٠

١٩٩. متحف بلا حدود (٢٠٠٧م). الحج العلم والصوفية: الفن الاسلامي في منطقة الضفة الغربية وغزة (الطبعة الأولى). بيروت-لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر صفحة ٤١

٢٠٠. مراحل تطور العمارة في مصر في العصر الإسلامي، د. عبد الباقي محمود إبراهيم مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية. وصل لهذا المسار في ٣ أبريل ٢٠١٦

٢٠١. العمارة الإسلامية بفلسطين في العهد الأيوبي، الدكتور شوقي شعث مؤسسة فلسطين للثقافة. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

٢٠٢. العمارة العربية الإسلامية خصائصها وتطورها عبر العصور، د. عبد القادر الريحاوي مجلة الباحثون العلمية العدد ٧١ أيار ٢٠١٣. وصل لهذا المسار في ٤ أبريل ٢٠١٦

المواقع الالكترونية ويكبيديا الموسوعة الحرة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

د. حليم خليف الكاني

# مختصر تاريخ الدولة الأيوبيَّة وخلفائها

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS
عمّان، شارع الملكة رانيا،
عمارة البيجاوي (69)، طابق 3
تلفاكس: 720 7162 79 962+
alaan.publish@gmail.com